زمن المماليك الجراكسة
فى عينى الرحالة الفرنسى جان ثونو
(مارس سنة ١٥١٢م / المحرم سنة ٩١٨هـ)
دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين

أ.د/ فايز نجيب إسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب – جامعة بنها

مقدمة (*)

تتراءى أوصاف وتقاليد شعب من الشعوب فى ملحوظات وتعليقات الحجاج والرحالة. فبمجرد عودتهم إلى بلادهم، يخبرون عن الطرق التى سلكوها، والأحداث التى صادفوها وكافة الأشياء الغريبة التى لفتت أنظارهم وغير موجودة فى بلادهم، والعادات والتقاليد التى لم يألفوها. وكان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم، ويحرصون على أن ينفعوا غيرهم بتجاربهم، فيصفون رحلاتهم تسجيلا لفضلهم وهداية لغيرهم، ولفتا لنظر أولى الأمر إلى مدى أهمية البلاد التى زاروها[١]. وأحيانا ما، كان بعض هؤلاء الرحالة – وخاصة الأجانب منهم – يقومون بأعمال التجسس لحساب بلادهم[٢]. ومع ذلك، يحسب لهم أنهم تَجشَّموا مشاق السفر وركبوا متن الأخطار والأهوال فى تلك العصور الوسيطة بوسائل انتقالها البدائية، وخلفوا لنا عن رحلاتهم عن مصر خاصة والأراضى المقدسة عامة، رسائل ثمينة تعد من أوثق المصادر التاريخية.

وكانت العادات والتقاليد – على وجه الخصوص – وأحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية التى تبدو فى أعين سكان البلاد شيئا عاديا–على وجه العموم– تظهر أحيانا غريبة عندما تصادفها لأول وهلة أعين الحجاج والرحالة؛ فيلتقطونها فى مصنفاتهم فى سرد أخاذ ينقل القارئ إلى مكان وزمان الراوى.

ولقد حظيت مصر[٣] بوصف ممتع كتبه الحجاج والرحالة الذين أتوا لزيارة معالمها الدينية. فالحج كان منتشرا منذ بدء المسيحية، وازداد فى قرونها الأولى، واعتبرت مصر أرضاً مقدسة. وكان أغلب الحجاج والرحالة الذين يذهبون إلى القدس، يضعون مصر فى برنامجهم. وقد أجمعت المراجع التى تؤرخ لتاريخ المسيحية فى فجرها الأول على أن سيناء أرضا مقدسة بمثابة القدس، وازدادت أهميتها بعد أن أصبحت مركزاً لحركة الرهبنة، تلك الحركة التى انتقلت من مصر إلى إفريقيا وأوربا وآسيا. كذلك ارتبط اسم سيناء ارتباطا وثيقا باسم سيدنا موسى (ﷺ). فإليها خرج على رأس قومه العبرانيين هرباً من طغيان فرعون مصر. وفوق أرضها ناجى الله وتحدث إليه[٤]. وشهدت مصر أيضا رحلة العائلة المقدسة التى ضمت المسيح عيسى بن مريم (ﷺ) مع والدته مريم العذراء ويوسف النجار هرباً من بطش هيرودوس. وقد أشار الرحالة الفرنسى جان ثونو Jean Thenaud إلى ذلك إشارة عابرة – كما سنرى – فى كتاب رحلته موضوع البحث والمعنون "رحلة فيما وراء البحار – مصر، جبل سيناء، فلسطين"[٥] "Le Voyage D'outremer (Egypte, Mont Sinay, Palestine)" وقد نشره شارل شيفر كما هو بلغته الفرنسية القديمة دون ترجمته إلى الفرنسية الحديثة.

- **جان ثونو وأسباب سفارته إلى مصر:**

أقدم جان ثونو على زيارة مصر فى مارس سنة ١٥١٢م/ المحرم سنة ٩١٨هـ، أى قبل خمس سنوات من الفتح العثمانى لأراضيها[٦]. وكان آنذاك مقدم دير الرهبان الفرنسسكان فى أنجولام[٧] Gardien du Couvent des Cordeliers D'angoulème. وقال إنه انطلق من

أنجولام فى الثانى من يوليو سنة ١٥١١م[٨] للتوجه بحرا إلى فلسطين، وجبل سيناء ومصر لزيارة تلك المواضع المقدسة والتبرك بها[٩]؛ وأن أحد أسباب قيامه برحلته تلك أن الدوقة لويز دو سافوا Louise de Savoie[١٠] انتهزت فرصة إيفاده فى سفارة إلى مصر، فكلفته بالتوجه إلى بيت المقدس للصلاة من أجلها فى كنائس الأراضى المقدسة؛ كما أوصته أن يضع فى كنيسة المهد ذهباً ولباناً ومراً تشبها بالمجوس الذين زاروا المسيح (عليه السلام) وهو فى المهد[١١].

أما السبب الأساسى لسفارة جان ثونو إلى القاهرة، فيعود إلى وقوع أحداث نتج عنها تدهور العلاقات السياسية والتجارية بين سلطنة المماليك الجراكسة وجمهورية البندقية، ورغبة الملك الفرنسى لويس الثانى عشر[١٢] (١٤٨٩-١٥١٥م/ ٩٠٠-٩٢١هـ) Louis XII الإحلال محل جمهورية البندقية، وذلك بتوثيق علاقاته التجارية مع سلطنة المماليك الجراكسة.

ولقد بدأ تدهور العلاقات بين البندقية والقاهرة عندما ازدادت الهجمات الأوربية على السفن المصرية فى البحر المتوسط، وكانت أخطرها حين انقض فرسان جزيرة رودس، تساندهم أربع سفن حربية من البندقية فى ٢١ أغسطس سنة ١٥١٠م/ جمادى الآخرة سنة ٩١٦هـ، على أسطول مصرى متجه إلى آسيا الصغرى لإحضار أخشاب. ودارت معركة بحرية بين الطرفين بالقرب من ساحل قلعة آياس[١٣]. ونتج عن تلك المعركة مقتل قائد الأسطول المصرى وهو أحد أقرباء السلطان الغورى، كما استولى الأوربيون على نحو ثمانى عشرة سفينة حربية مصرية محملة بالأسلحة وآلات حرب أخرى. ومما زاد من غضب السلطان أيضا على الأوربيين عامة والبنادقة المرتبطين به بعلاقات تجارية وثيقة خاصة، هو اكتشاف السلطان مكاتبات كانت مرسلة من الشاه إسماعيل الصفوى[١٤] (٨٩٣-٩٣٠هـ / ١٤٨٨-١٥٢٣م) ألد أعداء السلطان الغورى، إلى قناصل الأوربيين، تحضهم على أن يكاتبوا ملوكهم، لكى يهاجم الأوربيون سلطنة المماليك بحراً، على أن يقوم الشاه من جانبه بغزوها براً[١٥]؛ فأمر الغورى بالقبض على قناصلة الأوربيين بالإسكندرية ودمشق وطرابلس، وعرض هؤلاء على السلطان بالميدان فى ٢٣ من ذى القعدة، فوبخهم وأنذرهم بالشنق على حد قول ابن إياس[١٦].

وكان من الطبيعى أن تتحرك جمهورية البندقية – أكبر القوى التجارية فى العصر الوسيط والتى انتشر تجارها شرقاً وغرباً، مصارعين كل منافس يواجههم – وتسارع لمصالحة سلطنة المماليك الجراكسة بكافة السبل، لإعادة العلاقات التجارية بينهما إلى ما كانت عليه، بل ولتصبح أوثق من ذى قبل؛ هادفة من ذلك أيضا تفويت الفرصة على فرنسا الساعية لسحب البساط من تحت أقدامها؛ إذ انتاب دوج البندقية الفزع من سفارة جان ثونو، فأسرع بتكليف دومينيكو تريفيزان[١٧] Domenico Trevisan – أحد عظماء البنادقة الأكفاء – بترأس سفارة انطلقت فى ٢٣ صفر سنة ٩١٨هـ/ ١٠ مايو ١٥١٢م، محملة بالهدايا الثمينة والعديدة لعديد من كبار شخصيات السلطنة، فأورد تريفيزان فى مصدره قائمة مفصلة للهدايا المهداة للسلطان وزوجته، ولأمير دوادار الكبير[١٨] Grand Diodar، ولأمير كبير[١٩] Grand Amiral – وهو أعلى الطواشية وأقربهم إلى السلطان -. ونجح المبعوث البندقى نجاحاً بالغاً فى إنجاز المهمة الموكلة إليه، كما أفشل مهمة السفارة الفرنسية برئاسة ثونو والتى سبقته بشهرين.

- **خط سير الرحالة:**

على أية حال، فى الحادى عشر من أغسطس سنة ١٥١١م، فى فالنس Valence، انضم إلى ثونو إيميرى دامبواز[٢٠] Aimery D'Amboise مقدم فرسان رودس ومرافقيه[٢١]، وواصلوا السير

جنوبا حتى وصلوا فى السابع عشر من أغسطس إلى مدينة إيج مورت[٢٢] Aigues-Mortes. وفى يوم الجمعة ١٤ نوفمبر حوالى الساعة الثامنة صباحا، أبحرت السفينة وعلى متنها سفراء وحجاج وتجار وبحارة، وقارب عدد من كان على متنها أكثر من مائتين وخمسين من المسافرين[٢٣]. وكان من بين هؤلاء ما بين ثلاثة إلى أربعة من اليهود، يرتدون عباءة وعمامة صفراء؛ بينما اليهود الذين تخلوا عن اليهودية واعتنقوا المسيحية – ويطلق عليهم اسم "ماران" Marrans – كانت عمامتهم بيضاء اللون[٢٤].

تنقلت السفينة من ميناء إلى آخر ومن جزيرة إلى أخرى وأمضى الجميع ليلة عيد الميلاد فى جنوه[٢٥] وسجل ثونو أحيانا أثناء انتقاله من مدينة إلى أخرى ملاحظات قليلة عابرة، إلا أنه أبدى إعجابه الشديد بمدينة نابولى Naples إذ قال عنها إنها مدينة بالغة الشهرة؛ ولذلك أطلق عليها الجنة تارة وتارة ثانية بستان إيطاليا[٢٦]. وبسبب إعجاب ثونو الشديد بنابولى وطلبا للراحة والاستجمام، أمضى بها خمسة أيام لزيارة معالمها فى انتظار مواصلة الإبحار[٢٧].

- **ثونو فى الإسكندرية:**

وأخيرا رست السفينة فى ميناء الإسكندرية صباح التاسع والعشرين من شهر فبراير سنة ١٥١٢م حيث جذب انتباهه فنارها وقلاعها ومساجدها[٢٨].

وأورد ثونو أن أمير البحر السكندرى وبصحبته بعض كبار المماليك حرصوا على حسن استقبالهم. وأخبرهم المترجم الذى كان يهوديا، أن السلطان المملوكى الأشرف قانصوه الغورى[٢٩] (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م) غمرته السعادة بوصولهم سالمين خاصة وأنهم رعايا الملك الفرنسى العظيم الذى يكن له كل حب وتقدير، وعليهم أن يعتبروا أنفسهم كأنهم فى بلادهم فرنسا[٣٠].

وطوال الليل، عمت الفرحة فنادق القشتاليين والجنويين. وعن طريق الترجمان، قدم السفير الفرنسى شكره لأمير البحر مرات عديدة. وبعد ذلك تم اصطحاب الرحالة إلى دار قنصل القشتاليين والفرنسيين بالإسكندرية فيليب دو بيرتز[٣١] Philippe de Peretz، حيث كان قد أعد لهم وليمة فخمة احتوت على أفضل وأشهى أنواع الأسماك المطهية بطريقة شهية، إضافة إلى أنواع عديدة من الفواكه وأجود أنواع النبيذ. وحمل جملان أمتعة وصناديق الرحالة من ميناء الإسكندرية إلى مكان إقامتهم؛ وكالعادة، دفعوا مقابل ذلك خمسين دينارا أشرفيا[٣٢]. وقد رغب رجال الجمارك تفتيش الأمتعة والصناديق حتى يتحصلوا الرسوم الجمركية الواجبة عليها، إلا أنه لم يتحصلوها بناء على أوامر صادرة إليهم. وهكذا حظى الجميع بالإعفاء من تلك الرسوم[٣٣].

وفى اليوم التالى – أى فى مستهل مارس سنة ١٥١٢م – أرسل أمير البحر إلى السفير الفرنسى هدايا من الأسماك والفواكه، متعشما – كعادة هذا البلد – أن يحظى بهدايا تفوقها فى القيمة والمقدار. وبالرغم من أن الهدايا لم تتعد قيمتها ست دوكات[٣٤]؛ إلا أن السفير أهداه الجوخ والزيوت والعسل وشمع العسل وأصنافا عديدة من الأجبان. كل هذا فاقت قيمته ما يقرب من مائتى دوكة[٣٥].

- **ثونو ولمحة عابرة عن الإسكندرية:**

ولقد أقام الرحالة فى مدينة الإسكندرية[٣٦] حتى الثامن عشر من مارس، فسجل، ثونو فى مصنفه تاريخ تأسيس تلك المدينة قائلا إن مؤسسها الإسكندر الأكبر، وأن بها جبلين صغيرين لإرشاد راكبى البحر، وأمامهما برج يطلق عليه اسم برج فاروس[٣٧] Pharus أى المنارة[٣٨] – أو الفنار – وكانت من قبل أحد عجائب الدنيا السبع؛ لكونها شاهقة الارتفاع، ومحفورة بعمق فى أعماق البحر؛ كما

كانت تنير البحر طوال الليل على مسافة ثلاثين ميلا[٣٩]، وكانت خير مرشد للسفن. والإسكندرية القديمة – حسب قوله - عبارة عن جزيرة، وبها ميناء قديم بالقرب من المدينة، محرم على المسيحيين ارتياده[٤٠].

وقد ذكر ثونو أيضا أن الإسكندرية مدينة فائقة الجمال، كبيرة المساحة، محصنة بأسوار منيعة، ولا زال بها آثار الدمار البالغ بُعَيْدَ حملة بطرس لوسنيان عليها، وسبب ذلك أنه لم يتم إعادة بناء كل ما لحق بها من دمار. ومع ذلك، بالإسكندرية أكثر من ألفى منزل[٤١].

● **مغادرة الإسكندرية:**

وبعد ظهر يوم الخميس الثامن عشر من مارس سنة ١٥١٢م، غادر الرحالة مدينة الإسكندرية متخذين الطريق إلى القاهرة، عاصمة سلطنة المماليك الجراكسة. وكان بصحبتهم اثنان من المماليك، وقاموا بنقل بعض أمتعتهم بحراً، والبعض الآخر براً. فقد حُمِّلتْ المراكب التى تجوب نهر النيل بالنبيذ والصناديق والجوخ والفراء وعديد من الهدايا الرائعة الأخرى التى ستقدم إلى السلطان[٤٢]. وكان على كل زائر دفع ثلاثة عشر من الدوكات عن كل زجاجة نبيذ فى معيته عند دخوله القاهرة، ويعفى من ذلك السفراء والوفد المرافق لهم.

وعند مغادرة الإسكندرية، كان على كل جماعة أن تدفع رسم مغادرة قدره أربعة عشر من الدوكات. وبعد تقدم الرحالة حوالى ثلاثة فراسخ[٤٣] فرنسية، تم إيقافهم فى موضع لتحصيل رسوم المرور وعلموا من المملوكين اللذين كانا بصحبتهم، أن السفراء ومرافقيهم سيتم إعفائهم من هذه الرسوم بعد إثبات هويتهم ومهمتهم بناء على مرسوم أصدره السلطان ينص على ذلك. لكن، طلبا للسلام والأمان، دفعوا أربع قطع ذهبية.[٤٤]

● **الوصول إلى أبى قير:**

بعد ذلك، واصلوا السير ثلاثة فراسخ فرنسية أخرى، تظللهم أشجار النخيل بمنظرها الخلاب إلى أن انتهى بهم المطاف إلى موضع يسمى "أبو قير" Bouquers – غرب الإسكندرية – حيث بحثوا عن موضع يركنون فيه للراحة والنوم. وعانوا طوال الليل الأمرين من كثرة لدعات الناموس الذى فاق عدده الخيال، سابحا بطلاقة فى الهواء؛ إضافة إلى أن قمل فرعون Poulx de Pharaon كان يغطى الرمال[٤٥].

● **الرحالة فى مدينة رشيد:**

وفى اليوم التالى، قبل بزوغ النهار، امتطى الرحالة الحمير والبغال، وبعد اجتيازهم أحد أفرع النيل – ألا وهو فرع المعدية[٤٦] – تعجلوا حتى وصلوا إلى رشيد[٤٧] ظهراً. إلا أن ثونو تخلف عن السير مع رفاقه، لكون بغله انتابه الخوف فطرحه أرضاً. وحرص على متابعة رفاقه عن بعد، وتعرض آنذاك لمخاطر عديدة لكونه بمفرده. وأخيرا، تمكن من الانضمام إلى رفاقه فى رشيد قرب حلول المساء؛ ومع ذلك، اضطروا لتمضية ثلاثة أيام انتظارا لوصول أمتعتهم التى نقلت من قبل عن طريق النهر فى صندل سبق استئجاره، وكان عليه أن ينقل الرحالة إلى القاهرة.[٤٨]

● **وصف مدينة القاهرة:**

أ- منازلها: ومدينة القاهرة - حسب قول ثونو - تطل على نهر النيل، وهى محاطة بأسوار ويبلغ عدد منازلها ما بين ستمائة وسبعمائة. ويتوفر فيها بكثرة اللحوم والأسماك وأشجار النخيل والقمح والنبيذ

ومنتجات استهلاكية أخرى عديدة لسد حاجيات السكان. ومنازلها – كحال منازل بقية المدن المصرية – لها شرفات ومشيدة بالطوب اللبن وسقفها مكون من سعف النخيل المغطى بالقش. (٤٩)

هذا بينما كان جوس فان غستل (١٤٨٢-١٤٨٣م) Josse Van Ghistele أكثر إسهابا فى وصف منازل القاهرة، إذ أورد أن معظمها كان ذات أسقف منبسطة، وعادة يوجد فى السقف فتحة كبيرة. ونوافذ تلك المنازل كبيرة أيضا، مثبت فيها إطار حديدى يتسلل من خلاله نسيم عليل ونقى وافد من السماء. وبسبب الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة، تطلب ذلك ضرورة رش المنازل والشوارع ثلاث أو أربع مرات يوميا بالمياه، وإلا استحال سكناها أو التجوال فى الشوارع بسبب شدة تلك الحرارة؛ فبدون ذلك، لا يستطيع المرء أن يقيم داخل منزله ولا السير فى الشوارع. (٥٠)

أما فيلكس فابرى (١٤٨٣م) Félix Fabri، فقد زودنا بمقارنة طريفة بين منازل الغرب الأوربى ومنازل مصر. وكان فطنا للغاية حين أرجع الاختلاف إلى الظروف المناخية؛ إذ أورد أن "هذه المنازل تختلف فى طرازها المعمارى عن منازلنا، لأنها لم تبن لحماية قاطنيها من الأمطار والثلج والجليد أو البرد كحال طقس بلداننا، تلك الظروف المناخية التى لا تعرفها مصر؛ لذا فمنازل مصر بنيت فى الأساس للاحتماء من حرارة الشمس، وكذا للحيلولة دون تعرضها لهجمات اللصوص وقطاع الطرق". كما أضاف على رواية غستل أن "بأعلاها جدارا للحيلولة دون دخول أشعة الشمس داخل المنزل فتشتد الحرارة. بعد ذلك تحدث فابرى عن طريقة صنع الطوب اللبن". (٥١)

وشاهد جان ثونو آنذاك موكبا كبيرا أقيم تكريما لأحد اليونانيين كان قد تخلى عن المسيحية واعتنق الإسلام. وفى نهاية الطواف والاحتفال به، تم اصطحابه إلى المسجد وسط محيطيه لإشهار إسلامه(٥٢). وقد انفرد ثونو – دون غيره من الرحالة الأوربيين – بتسجيل مراسم الاحتفال بأوربى دخل الإسلام.

ب- نهر النيل: بعد ذلك، ينتقل ثونو إلى وصف نهر النيل(٥٣) قائلا إنه أروع وأطول أنهار العالم، ويتميز بخصوبة تفوق كافة أنهار البسيطة؛ وأرجع ذلك إلى أنه ينبع من جبال إثيوبيا الشاهقة حيث يجرف معه أثناء جريانه التربة والطمى الذى يترسب بدوره بالقرب من مصب البحر المتوسط؛ وينتج عن ذلك خصوبة التربة المصرية. وكان ثونو ثاقب البصر والبصيرة حين قال لولا مياه النيل وفيضانه وطميه لكانت مصر صحراء جرداء كالصحراء الليبية والصحراء العربية(٥٤) وتدل مقارنته تلك على أنه رحالة يتمتع بثقافة واسعة.

وسجل أيضا أن مجرى النيل يبلغ طوله أكثر من ألف فرسخ(٥٥)، وأن مياه النيل تساعد على إخصاب كافة الأراضى فتنتج العديد من المزروعات، ويتم رى الأراضى بمياهه ويجنى ثمارها خمس أو ست مرات متتالية(٥٦). كما يتميز نهر النيل بغزارة ثروته السمكية وتنوعها حتى إنه يتم تمليحها بكميات هائلة لحفظها واستهلاكها عند الحاجة؛ كما يتم تصدير الفائض إلى الخارج كحال بلاد الفلاندر Flandres التى تشتهر بتصدير سمك الرَّنكة إلى أصقاع عديدة. وبذلك كان ثونو بليغا فى مقارنته بين القاهرة والفلاندر Flandres. كذلك هناك أيضا الدولفين والسردين والبلطى وعديد من أنواع الأسماك الأخرى، التى تتكاثر بفضل تغذيتها القائمة على الطمى، حتى يقال إن الجزء الأمامى من الأسماك مكون من لحم والجزء الخلفى من الطمى(٥٧)، وفى قوله هذا مبالغة واضحة، ولكنه يبغى منه إظهار مدى أهمية طمى النيل كغذاء بالغ الأهمية للأسماك آنذاك.

كذلك فإن نهر النيل ملىء بالتماسيح المتوحشة، وتمساح كهذا ليس إلا تنين مائى، فطوله يصل إلى عشرين أو خمسة وعشرين ذراعا(٥٨)؛ وبالتالى من السهل عليه التهام البشر والحيوانات وكافة الكائنات الحية التى يعثر عليها فى مياه النيل. ثم سجل ثونو أنه شاهد بأم عينيه المصريين يأكلون التماسيح. ويذكر أيضا أن هذه التماسيح المفترسة لديها مخالب قوية وأسنان حادة وتتوارى عن الأنظار بسرعة فائقة؛ كما أن قوتها الرئيسة الهالكة تتمثل فى ذيلها.

وانتقل ثونو بعد ذلك بالحديث عن السلاحف، فلاحظ أن حجمها كبيراً للغاية، وبالغ حين قال إنه يصل إلى حجم الإنسان. (٥٩)

ويؤخذ على ثونو قوله إن فيضان النيل يبدأ فى أواخر شهر يوليو وصحة ذلك أنه يبدأ فى الرابع والعشرين من يونيو. كما سجل أنه يستمرُ لمدة ثلاثين إلى أربعين يوما(٦٠). وأورد أن فى القاهرة القديمة – المسماة بـ بابيلون القديمة Babilonne(٦١) أو مصر وقديما ممفيس – يوجد مقياس النيل(٦٢) وذلك فى جزيرة الروضة(٦٣)، وبفضله يمكن تحديد مدى غزارة أو شحة مياه الفيضان وما يترتب على ذلك من زيادة المحاصيل الزراعية فيعم البلاد الرخاء والازدهار؛ أما فى حالة قلته أو ندرته ينتج عن ذلك الجفاف والخراب والمجاعة. وفى حالة غزارة مياه الفيضان، يحتفل السلطان بذلك وتعم الأفراح ربوع البلاد؛ كما يبشر السلطان بذلك كافة البلدان الخاضعة لسيادته؛ كذلك يرسل بتلك الأخبار السارة إلى الأمراء والبلدان التى تربطه بها علاقات حميمة.

ويواصل ثونو حديثه عن نهر النيل بالقول إنه صالح للملاحة، لذا تستقبل مصر المراكب الوافدة إليها من النوبة وطيبة Thebaïde – أى صعيد مصر – وإثيوبيا(٦٤) القريبة، محملة بالقرود وطيور الببغاء وأشياء أخرى. (٦٥)

- **وصف النُزُل:** هذا عن الفصل الأول المعنون "الطريق من أنجولام إلى القاهرة"(٦٦)؛ أما الفصل الثانى وعنوانه "عن القاهرة وبلاط السلطان المملوكى"(٦٧) Du Cayre et de la Cour de Souldan الأشرف قناصوه الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م) فقد استهله بالقول إنه فى الخامس والعشرين من مارس سنة ١٥١٢ قام الرحالة بزيارة الأهرامات ومقابر الملوك وهى على مسافة فرسخين من القاهرة، ورويدا رويدا ساروا إلى أن وصلوا إلى ميناء القاهرة النهرى المسمى بولاق(٦٨) Boulac. وفى هذا الموضع جاء إليهم أحد الأمراء من قبل السلطان وبصحبته بعض المماليك والخيول والحمير حتى يذهبوا إلى النُزُل الذى خصصه وأعده لهم السلطان والذى سبق تشييده فوق خندق يطل على النيل. وضم هذا النُزُل ست أو سبع حجرات، وهو مبلط بالرخام وأحجار السُمّاق والمرمر المُرَقَّط وبعض الأحجار الأخرى الثمينة مثبتة ومستقرة ومتناغمة بفن بارع. أما حوائط الحجرات فهى مغلفة بقشرة مَسْمَريَّة، وطليت بألوان ذهبية ولازردية وألوان أخرى ثمينة؛ كما أن الأبواب كانت مزينة بالعاج والأبنوس وبعض الأشياء الغريبة الأخرى. وقد لاحظ الرحالة أن الصناعة البارعة فاقت كل المواد المستخدمة، كما أظهرت قيمتها الثمينة. وكانت الحجرات مزودة بمياه باردة وساخنة آتية من ينابيع الحمامات. ويقال إن هذا النُزُل الفخم تكلف تشييده ثمانين ألف دينار أشرفى، وأن بالقاهرة وحدها مائة ألف نُزُل أكثر جمالا على حد قول جان ثونو، وأنه رأى بأم عينيه العديد منها(٦٩)، وفى قوله هذا مبالغة واضحة.

- **وصف بولاق:** على أية حال، كان الرحالة جوس فان غستل (١٤٨٢-١٤٨٣م) أفضل من زودنا بسرد مفصل نستخلص منه أهمية بولاق البالغة. وبذلك سد الفجوة الموجودة فى مصنف ثونو وغيره

من الرحالة الأوربيين؛ إذ خصص الفصل السابع عشر من مصدره وعنوانه: "De Divers Jardins et Riches Vergers Remplis D'arbres Étranges, de Fruits et de Légumes Situés entre Babylone et Boulaq" "عن الحدائق المتنوعة والبساتين المثمرة المليئة بالأشجار الغريبة، بالفاكهة والخضروات، الواقعة بين بابيلون وبولاق" جاء فيه من بابيلون، توجه الرحالة إلى موضع رائع يسمى بولاق، على مسافة ربع ميل تقريبا سيرا جنوبا على شاطئ النيل.

وبولاق أكثر كبراً من بابيلون، ولكن ليس لها لا أبواب ولا أسوار وتمتد على طول نهر النيل. ويرى المرء فيها منازل رائعة وفخمة، مليئة بكافة أنواع البضائع الممكنة وتلك التى لا يمكن تخيلها. ذلك، فى هذا الموضع، يوجد المستودع الرئيسى للبضائع المجلوبة بواسطة السفن إلى القاهرة، تلك البضائع الواردة من كافة المناطق المجاورة، مثل الصعيد والإسكندرية، ودمياط ومناطق أخرى أعلى نهر النيل ونحو سافله. إنه لمشهد بالغ الروعة حتى إن لا أحد يستطيع وصفه. وفى نفس هذا الموضع أيضا، يتم تزويد القاهرة بالماء العذب اللازم لها، لأن القاهرة نفسها، بها القليل من الماء العذب. (٧٠)

ومما يذكر أن بولاق – كما أورد جوس فان غستل – تقع على مسافة متساوية من موقع بابيلون من القاهرة، بحيث أن ثلاثتهم يشكلون مثلثا يطلقون عليه القاهرة. علما بأن الشوارع المؤدية من القاهرة إلى بابيلون، ومن بابيلون إلى بولاق، ومن بولاق إلى القاهرة عامرة بالمنازل الآهلة بالسكان. ومع ذلك، فإن المساحات الصحراوية الواقعة بين الأماكن السكنية الثلاثة يوجد بها العديد من المتنزهات والحدائق والبساتين يصعب على المرء وصف روعتها وجمالها. وتنتشر العديد من منازل التنزه الصغيرة والجميلة، وكافة أنواع النباتات العطرية، كما أن ثمار الفاكهة المتنوعة تسر الناظرين مما يشبه بحق الجنة الأرضية. (٧١)

● **انتشار الحدائق المثمرة فى القاهرة:** ثم يواصل ثونو سرده قائلا إن بالقرب من الموضع السابق يوجد عدد كبير من الحدائق المثمرة العامرة بكافة أنواع الفواكه والمزروعات كالليمون والأترُجيَّة(٧٢) – وهو نبات له رائحة شبيهة بالليمون(٧٣) – والبرتقال والمشمش Aubercotz والعنبر والموز(٧٤) Pommes de Musez ou d'adam.

ولاحظ ثونو أن هذه الحدائق المزهرة يتم ريها يوميا من مياه النيل فى الصباح والمساء، وتقوم الثيران والخيول بسحب تلك المياه من النيل. وأنهى حديثه عن هذه الحدائق بالقول إنها تدر على السلطان كل عام ما لا يقل عن خمسمائة أو ألف دينار أشرفى؛ علما بأن فى القاهرة أكثر من ألف وخمسمائة حديقة. (٧٥)

● **تبادل الهدايا بين السلطان والرحالة:** ويذكر جان ثونو أنه بعد أن قام الأمراء والمماليك المرافقين لهم بإنزال الرحالة فى النُزْل المخصص لهم، أقام لهم الرحالة مأدبة احتسى فيها الجميع النبيذ. وقد أكثر مرافقو الرحالة من الشرب حتى الثمالة. (٧٦)

وبعد استقرارهم فى القاهرة، وفدت قافلة الحج من مكة المكرمة. ثم يقطع ثونو حديثه عن القاهرة ليتحدث عن الطريق من القاهرة إلى مكة المكرمة متحدثا بالتفصيل عن مكة والمدينة وشعائر الحج(٧٧)؛ ثم يعود ثانية إلى القاهرة قائلا إن الرحالة أمضوا فى القاهرة أربعة أو خمسة أيام؛ وفى اليوم الرابع أرسل إليهم السلطان قانصوه الغورى هدايا عبارة عن خرفان بذيول طويلة، سيقوا إليهم من قرونهم؛ كما أرسل أيضا الأسماك والدواجن، والزبد، والأرز، والسكر، والعسل، والفواكه(٧٨). فى

حين قدم الرحالة إلى السلطان هدية جميلة للغاية تبلغ قيمتها أكثر من ألفين من الدوكات ضمت بعض الأوانى الفضية، وأغطية السراير الحريرية، والأقمشة الصوفية والحريرية والفراء والجلود والبياضات. هذا بينما أعطى السلطان إلى كل من بيير بوردولو Pierre Burdelot وفالوريول Valeriolle – وكانا قد قادا حاملى الهدايا سالفة الذكر – مبلغ عشرين ديناراً أشرفيا. (٧٩)

- **تحديد ميعاد للقاء السلطان:** ولقد حدد ا لسلطان الغورى يوم الاثنين الثامن والعشرين من مارس موعداً لأول اجتماع له بالسفير الفرنسى. وفى المساء، جاء الترجمان ليعرف حاجتهم من الخيول حتى يعدها لهم. فما كان من السفير أن طلب ثمانية، هذا بينما أخبر ربان السفينة الشراعية بيروتز دو بيرتز Perotz de Peretz وبحارته وخدمه السفير أنهم فى حاجة إلى أربعة خيول، ولفت نظره أنه يعتبر سفيرا مثله، وقال له إنه مكلف من قبل الملك الفرنسى بمهمة خاصة وسرية، عليه أنه يخبر السلطان بها. (٨٠)

- **وصف ثونو لمراسم البلاط:** وفى اليوم الذى حدده السلطان، ومنذ مطلع الفجر، امتطى الرحالة صهوة خيولهم بصحبة أحد الأمراء المماليك وترجمان السلطان وخمسين من المماليك للتشرف بحضرته. فاجتازوا شارعا طويلا أوصلهم إلى القصر السلطانى الذى يقارب اتساعه اتساع مدينة أورليان(٨١) Orléans وعلى مدخل هذا القصر – وهو مدخل منكسر بزاوية قائمة يؤدى إلى الحوش السلطانى -، تم إطلاق ضربتى مدفع للاحتفاء بوصولهم؛ وهناك وجدوا أكثر من خمسين من المنشدين والعازفين يعزفون فى هدوء على مختلف الآلات الموسيقية مقطوعة تعبيرا عن فرحتهم بقدومهم وترحيبا بهم. وبعد أن قام الأمير المكلف بحراسة باب القصر بتحيتهم، اجتازوا الفناء الأول، حيث وجدوا أكثر من خمسمائة مملوك، يصطفون فى نظام دقيق، وكان هؤلاء يرتدون الجلاليب البيضاء الطويلة. وكذا اجتازوا الفناء الثانى الكبير، حيث رأوا فى مدخله عديدا من المنشدين والعازفين، والمعدات الحربية – أى المجانيق – لدك الأسوار، وكذا صانعى الأسلحة. بعد ذلك مروا من أمام ما يقرب من ألف من المماليك كانوا مصطفين فى صفوف منتظمة. وأخيرا، وصلوا إلى الفناء الثالث، حيث وجدوا فيه ما يقرب من ألفين من المماليك كانوا أحسن انتظاما من المماليك السابقين. (٨٢)

- **الحوش السلطانى:** وفى الحوش السلطانى، كان السلطان متربعا – أى ملوى الساقين حسب قول ثونو – يستند إلى حائط فوق دكة عالية من الحجر الفص، مغطاة بسجاد فاخر والتى تعد سرير الملك. وتشبه طريقة جلوسه جلوس خياطى الحريم فى فرنسا أثناء انهماكهم فى الحياكة. وكان فوق راس السلطان مظلة على شكل قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، تحجب عنه الشمس؛ بينما أمامه، بسطت الأرض بالأبسطة الثمينة التى جاوزت مساحتها عشرين قدماً مربعاً(٨٣) ولكونه سيستقبل مبعوثين أجانب، حرص السلطان على الظهور فى أعظم مظهر؛ إذ كان يرتدى ثوبا من التفتا – وهو حرير رقيق صقيل – أصفر اللون، وكان على رأسه عمامة من التيل الهندى الرفيع. وكانت هذه العمامة عالية، بها ست ثنيات: ثنيتان على جبهة السلطان، وثنيتان على كل من اليمين(٨٤) Dextre واليسار(٨٥) Senestre. وتعرف هذه العمامة باسم "التخفيفة" ومنها نوع كبير له قرون طوال، عرف باسم التخفيفة الكبيرة؛ ويقول عنها ابن إياس "... هى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بها الأتراك – أى المماليك-"، واشتهرت أيضا باسم "الناعورة"(٨٦). كما وقف على يمين السلطان، فوق البساط سالف الذكر، ستة من

كبار أمراء المماليك، كانت ملابسهم شديدة الشبه بملابس السلطان، كما كانوا حفاة؛ كذلك الحال على يسار السلطان؛ أى بلغ مجموع عددهم اثنتى عشر من المماليك(٨٧).

وكان البلاط السلطانى سالف الذكر شاهدا على تبجيل السلطان من قبل مماليكه. فللمثول أمامه، يقوم المملوك بثلاث انحناءات، إذ يلمس فى كل مرة بأطراف أصابعه الأرض، ثم يقبلها. هذا بينما كان السفير مسموح له بالتقدم والاقتراب حتى طرف البساط لا أكثر. وكان على الترجمان أن يقدم إلى السلطان خطابات الملك، وقبل وصولها إلى يديه، كانت تُمرَّر أولا على كل الأمراء؛ يعقب ذلك إطلاع السلطان عليها، ثم يظهرها للجميع. وبعد ذلك، يسأل عن صحة الملك وأحواله؛ يكرر ذلك ثلاث مرات ويواصل ثونو سرده قائلا: "وسألنا السلطان أيضا منذ متى رحلنا من فرنسا، ليعرف المسافة بين البلدين، كما استفسر عن المدة التى أمضيناها فى مصر"(٨٨).

وكان السفير يجيب على كافة أسئلة السلطان ومطالبه بحنكة وحكمة قائلا له: "إننا حظينا بالترحاب وحسن الضيافة، ونشعر بأننا فى بلادنا، لكوننا لم نشعر بالغربة، كأننا نقيم فى صروحنا Manoirs"(٨٩).

• **مراسم البلاط فى مصنف جوس فان غستل:** والملاحظ أن رواية جان ثونو عن مراسم البلاط ووصف القصر السلطانى كانت أقل تفصيلا من رواية جوس فان غستل التى تعد أكثر روايات الرحالة الأوربيين تفصيلا، كما أن بها بعض الاختلافات.

فقد أورد جوس فان غستل أنه بعد زيارة مدينة القاهرة، عاد الرحالة ثانية إلى كبير التراجمة ليقدموا له جوهرة ثمينة أحضروها معهم من البندقية، وطلبوا منه أن يقبلها عرفاناً بالجميل؛ كما التمسوا منه فى نفس الوقت التدخل لدى السلطان لتدبير الميعاد المناسب للقائه. ووعدهم كبير التراجمة بتنفيذ مطلبهم، وأبدى لهم استعداده الدائم لتلبية مطالبهم. وفى مقابل الهدية سالفة الذكر التى قدموها إليه، أهداهم بدوره قارورة بلسم من نوع ممتاز، وهو بلسم طبى عالى الجودة (ترياق(٩٠) Thériaque).

وبعد انقضاء يومين على هذا اللقاء، أخبرهم لكى يهموا للمثول بصحبته أمام السلطان. وباقتراب وصولهم إليه، أخبرهم بالمراسيم المتبعة فى هذا اللقاء، خاصة عند المثول أمامه، كذلك الحال عند الاستئذان بالانصراف(٩١).

ذكر جوس أنه بمجرد وصولهم فى حضرة السلطان، كان ينبغى عليهم السجود من ثلاث إلى أربع مرات، وتقبيل الأرض من أمام السلطان من على بعد منه، والاستمرار فى التقدم نحوه عند أوائل السماط الممتد إلى تخت الملك. بعد ذلك، تقديم التماسهم إلى أحد حجابه -والمقصود هنا "المَهْمَنْدَار" كما أورد القلقشندى- الذى بدوره يسلمه له. وفى حال المغادرة بعد لقاء السلطان، كان عليهم التراجع إلى الخلف لمدة طويلة إلى أن يصبح السلطان غير مرئى(٩٢).

وبعد أن علموا بتلك المراسم، تم اقتيادهم إلى قصر السلطان، هو قصر بالغ الجمال والفخامة والثراء، وتبلغ مساحته مساحة مدينة ترموند Termonde فى فلاندر Flandre. ويقع على تلة فى أحد جوانب القاهرة(٩٣).

وبوصولهم إلى القصر السلطانى، اجتازوا عشرات المواضع، كانت بالغة الروعة والجمال، كما مروا بأبواب وصالات، حتى وصلوا أمام مسكن صيفى جماله لافت للنظر، ومبنى بالكامل بأحجار جميلة منسقة ومطلية بالذهب، واللازورد، وألوان أخرى ثمينة. ومن هذا المنزل، على الجانبين رأوا من نوافذ جميلة وفخمة مسيجة (بقضبان الحديد) ومطلية بطلاء ذهبى، عديداً من

الحدائق التى تبعث على البهجة بأكواخها المبنية من ورق الشجر، وبساتينها العامرة بكافة أنواع النباتات العطرية وأشجار الفاكهة المثمرة. كما وجد أيضاً عدداً كبيراً من الينابيع الصناعية، تتميز بذوقها الرفيع وفنها البديع. وتستخدم هذه الينابيع لرى وترطيب هذه الحدائق والبساتين.

عقب ذلك، دخل الزوار فى قاعة فخمة ذات أعمدة ألا وهى الإيوان السلطانى، حيث جذب أنظارهم أثمن شئ يمكن تخيله فى العالم؛ إذ الحوائط مزدانة بالكامل بأحجار مصقولة عديدة التنوع، وكذا برخام أبيض وأسود وأحمر، والمرمر المرقط، والرخام السماقى والعقيق الأحمر وأحجار ثمينة أخرى متنوعة. كما أن تلك الحوائط مطلية بألوان متنوعة، رسم عليها شرائط معقودة، وأهداب حلزونية، وزوايا، وكتابات عربية؛ إضافة إلى أنها مزدانة بالفسيفساء وغيرها حتى إنه من الصعوبة البالغة تحرى الدقة البالغة فى وصفها[٩٤].

وفى وسط الإيوان بقلعة الجبل حوض مربع من الرخام فى وسطه نافورة ماء، يصل عمقه إلى مستوى الركبة، ويبلغ اتساعه من ثلاثة إلى أربعة أذرع[٩٥]، وفيه تسبح أسماك صغيرة ناعمة بمائه البارد؛ ويتم تجديد هذا الماء على الدوام حتى يتسنى للسلطان إنعاش يديه وقدميه بمائه متى إشتاق لذلك[٩٦]. أما أرضية الإيوان، فهى مغطاة بسجاجيد ثمينة، رتبت فوقها وسائد عديدة مغطاة بقماش من الكتان، أو الحرير أو القطيفة، كما أن بعض الوسائد كانت مغطاة بقماش ذهبى اللون أو من الجلد الوارد من الهند الذى تميز لونه بالجمال الفائق والروعة البالغة.

وكان السلطان يقيم فى هذا الموضع، جالساً على وسادة، حيث ثنى ساقيه، منهمكاً فى لعب الشطرنج مع أحد أمرائه. وبمجرد رؤيته، قام الوفد بالسجود وتقبيل الأرض، وكرروا ذلك أربع مرات تنفيذاً للتعليمات التى أوصاهم بها المترجم. وحين وصلوا أمام السلطان، عبروا عن مطلبهم بصوت عالٍ. حينئذ، كرر كبير المترجمين الذى أدخلهم مطلبهم بعد أن ترجمه إلى لغة البلاد أى إلى العربية. وفى واقع الأمر توسلوا من سموه وعظمته أن ينعم عليهم بخطابات وتصاريح أمان حتى يتسنى لهم التنقل فى أمن وأمان فى أراضى سلطنته، علماً بأنهم لا يرغبون اجتياز أى موضع ممنوع ومحرم على المسيحيين اجتيازه، كمدينة مكة المكرمة حيث يبجلون جسد الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وكذا معبد سليمان؛ إضافة إلى كافة المساجد ومواضع الصلاة. كما أنهم على استعداد لدفع كافة الرسوم المطلوبة أثناء اجتيازهم للطرق طبقاً لأوامر وقوانين بلاده؛ وأنهم لا رغبة لهم فى شئ آخر إلا السماح لهم بالتنقل بهدوء وسلام فى أراضى السلطان للزيارة والسياحة ليس إلا[٩٧].

وبعد انتهاء المترجم من كلمته، قدم الرحالة إلى السلطان الجواهر التى أوصوا بصناعتها فى البندقية لهذا الغرض، والتمسوا منه قبولها عرفانا بالجميل. وبعد أن عرضوا مطلبهم، وافق السلطان عليه فى الحال، وأمر بإعطاء الرحالة قارورة من بلسمه الخاص به، إضافة إلى هدايا أخرى. وفى نفس الوقت، استعلم منهم عن أخبار بلادهم، وعن الأحداث الجارية، وعلى وجه الخصوص سألهم عن أميرهم المتوفى الدوق شارل لوتيمرير (الجسور) Charles Le Téméraire ذى الذكرى الطيبة. فأجاب الرحالة باختصار عن هذه الأسئلة، ثم انصرفوا منفذين التعليمات التى أسدت إليهم عند انصرافهم[٩٨].

وذكر جوس فان غستل أنه فى لقاءات السلطان الرسمية، أى على سبيل المثال عندما يلتقى بكبار السفراء أو كبار الموظفين الموفدين إليه من قبل أمراء أو بلدان، يظهر السلطان كأنه فى استقبال احتفالى، أى فى كامل الأبهة والعظمة وقد أورد ذلك جان ثونو.

وكانت ملابسه دائماً وفى الأساس من الكتان الأبيض، وكانت شديدة الشبه بملابس المماليك. ويضع على رأسه عمامة بيضاء التفت إلى أعلى، متموجة، وبها أحرف، تشبه تماماً التاج[٩٩].

● **مراسم البلاط فى مصنف أرنولد فون هارف:** ويحسب لجوس ڤان غستل تزويدنا بوصف مفصل ورائع عن الإيوان السلطانى فاق غيره. ومما يذكر أن الفارس الألمانى أرنولد فون هارف الذى زار مصر سنة ١٤٩٧م فى عهد السلطان الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباى (٩٠١-٩٠٤هـ/١٤٩٦-١٤٩٨م) زودنا برواية مشابهة لرواية غستل، إذ ذكر أنه التقى باثنين من المماليك من أصل ألمانى ساعداه فى جولاته فى القاهرة، وبفضلهما حصل على تصريح من السلطان لزيارة بقية البلدان الخاضعة لسلطنة المماليك. ويذكر أن السلطان دعاه للمثول بين يديه ودار بينهما نقاش بمساعدة المملوكين حول ملك فرنسا شارل لوتمرير (الجسور فى المراجع العربية) وإذا كان سيده، ومدى قوة وقوات وأسلحة وعتاد الملك الفرنسى، وإذا كان قد تمكن من غزو أراض شاسعة هذا العام، وما هى مخططاته التوسعية. ويذكر أرنولد أنه فهم مقاصد السلطان، وأنه سمع أن كل بلدان ما وراء البحار قد انتابها القلق من الملك الفرنسى شارل الثامن، لأنه فى الأعوام السابقة كان قد اجتاح نابولى وبويى Pouille وكالابريا، وعزم هذا العام على إعداد حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة.[١٠٠]

ويذكر أرنولد فون هارف أن المملوكين الألمان ذهبا معه إلى قصر السلطان لزيارته. وأن مساحة القصر تتعدى مساحة مدينة دورن Düren، الواقعة على بعد عشرين كم من إكس لا شابل Aix- La- Chapelle.[١٠١]

ويقع القصر على ربوة صخرية شاهقة الارتفاع. وللوصول إليه ينبغى اجتياز اثنى عشرة بوابة. وفى مدخل البوابة الأولى من قلعة الجبل، على اليمين، يوجد مبنى كبير يحوى صالات عديدة حيث يتلقى شباب المماليك دروساً فى القراءة والكتابة والتدرب على طريقة القتال بالرمح وكيفية استخدام الترس للدفاع عن النفس والرمى بالقوس وكافة أنواع الأسلحة الأخرى وذلك فى ثكنات عسكرية –والمقصود هنا التدريب على فنون القتال فى الطباق- وقد رأى بهذه المدرسة العسكرية –أى الطباق- خمسمائة مملوك من الغلمان الصغار، يشرف على تدريبهم اثنان وعشرون أستاذاً.

وذكر أرنولد أيضاً فى روايته سالفة الذكر أنه بعد ذلك، اجتاز ست بوابات أخرى منفصلة عن بعضها البعض حيث رأى الحرفيين ومصانع للأسلحة ومسجداً كبيراً والأسطبل السلطانى حتى وصل إلى الحوش السلطانى –أى الإيوان السلطانى- وذلك بعد اجتيازه البوابة الثامنة حيث قادته هذه البوابة إلى موضع مربع كبير المساحة وجد به كافة المماليك الذين يخدمون السلطان –أى المماليك السلطانية- وكانوا آنذاك - أى سنة ١٤٩٧م- حسب قول أرنولد حوالى ستة عشر آلاف مملوك. وكان السلطان يجلس فى الإيوان السلطانى ثلاث مرات من كل أسبوع ليحكم بين الناس ويستمع إلى طلباتهم.[١٠٢]

والملاحظ أن رواية الفارس الألمانى أرنولد فون هارف تقاربت أيضاً مع رواية جوس ڤان غستل إذ أورد أنه بعد مرور الرحالة من خلال ثلاث بوابات عليها حراسة مشددة، وصلوا إلى حجرة السلطان الخاصة به –أى الإيوان السلطانى- وكانت حسنة التأثيث ومزينة بأبهة وفخامة وروعة. وكان السلطان يجلس على دكة (أو مصطبة فى حوش القلعة) مرتفعة تعلوها مظلة مزركشة.[١٠٣]

● **ابن إياس ومراسم البلاط فى سفارة ثونو:** وقد انفرد ابن إياس – المؤرخ المعاصر – دون غيره من المصادر الإسلامية، بتسجيل سفارة جان ثونو، وأن هذه السفارة ضمت كبار نبلاء فرنسا وكانوا نحوا من خمسين، واستقبلوا بحفاوة بالغة. إذ أورد أنه:

"فى يوم الاثنين حادى عشره (من محرم) حضر إلى الأبواب الشريفة قصاد من عند ملوك الفرنج الفرانسة (أى ملوك فرنسا)، وكانوا هذا القصاد من رؤساء الفرنج، فأرسل لهم السلطان خيولا يركبونها من بولاق إلى القلعة، فلما طلعوا أوكب لهم السلطان بالحوش، وزينوا لهم باب الزردخاناه(١٠٤) وباب القلة بالصناجق(١٠٥) واللبوس وآلة السلاح، فلما طلعوا إلى القلعة فكانوا نحوا من خمسين نفراً، ومن أعيانهم اثنين لابسين ثياب مخمل كفوى، فى أرقابهما سلاسل من ذهب، فلما أن وقفوا بين يدى السلطان أظهروا التعاظم ثم باسوا له الأرض، فلما قرؤوا كتابهم انصرفوا وأنزلوهم فى بيت كاتب السر(١٠٦) أبو بكر بن مزهر الذى فى بركة الرطلى، ونزل نائب المهمندار(١٠٧) صحبتهم، وشقوا من القاهرة، وكان ذلك يوما مشهودا." (١٠٨)

مما تقدم، نلاحظ أن ابن إياس جنح إلى اختصار مراسم البلاط لكونها من الأمور الطبيعية والمعتادة بالنسبة إليه، بينما كان ثونو أكثر تفصيلا لأن مراسم البلاط تلك لم ير مثلها فى وطنه فرنسا أو غيرها من البلدان

● **ابن إياس ومراسم البلاط فى سفارة تريفيزان:** كذلك انفرد ابن إياس دون غيره من المصادر الإسلامية بذكر مراسم استقبال غريمه دومينيكو تريفيزان ألا وهو سفير البندقية إلى بلاط السلطان قانصوه وذلك يوم الاثنين ٢٣ صفر سنة ٩١٨هـ / ١٠ مايو سنة ١٥١٢م، وكان غرض هذه السفارة تصفية ما شاب العلاقات بين البندقية وسلطنة المماليك الجراكسة، وإعادة المياه إلى مجاريها وكذا العلاقات التجارية التى كانت قد توقفت، وسد الطريق على المبعوث الفرنسى جان ثونو الذى يريد الصيد فى الماء العكر وذلك بالإحلال مكان البنادقة كما سبق أن ذكرنا.

جاء فى ابن إياس: "... حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ملك الفرنج البنادقة، فكان له يوم مشهود، وأوكب السلطان فى ذلك اليوم وزيَّن باب الزردخاناه (أى بيت السلاح) باللبوس والسلاح، ثم طلع القاصد وصحبته تقدمه حافلة (أى هدايا كثيرة) نحو مائة حمَّال ما بين أوانى بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل تماسيح وشقق وحرير أطلس وغير هذا أشياء حافلة. فطلع القاصد وهو راكب على فرس وقدامه سبعة أنفس من أخصَّائه وهم راكبون على خيول والباقى مشاة، فكانوا نحو خمسين إنسانا من جماعة القاصد الذين جاؤوا صحبته، وكان القاصد رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار، وكان لابسا خلعة جرّ ذهب على حرير أصفر فطلعوا إلى القلعة، وقابلوا السلطان ثم نزلوا إلى مكان عُدَّ لهم..." (١٠٩)

نستخلص من النص سالف الذكر أن هدايا دومنيكو تريفيزان Domenico Trévisan فاقت فى كثرتها وتنوعها تلك التى حملها ثونو. لذا نجح السفير البندقى فى إفشال سفارة ثونو. هذا وقد أورد تريفيزان فى سفر رحلته تفاصيل تلك الهدايا المقدمة إلى العديد من كبار رجال البلاط المملوكى وعلى الأخص السلطان الغورى(١١٠) وزوجته(١١١)، والدوادار الكبير(١١٢) Au Grand Diodar وكبير الأمراء(١١٣) Au Grand Amiral. وفى اليوم التالى من وصول تريفيزان، أهداه السلطان كماً هائلا من المواد الغذائية(١١٤)، كان ذلك قبل أن يلتقى به.

• **التسميات المختلفة لمدينة القاهرة:** بعد ذلك، تحدث جان ثونو عن مدينة القاهرة؛ فذكر أن هذه المدية تسمى اليوم – أى فى فترة تواجده فى مصر، أى سنة ١٥١٢م / ٩١٨هـ- مصر القديمة، وفى قديم الأزمان تسمى ممفيس؛ وكانت مقراً لفرعون مصر، وهى المكان الذى أحدث فيه موسى (عليه السلام) المعجزات لتحرير شعبه. بعد ذلك أطلق عليها بابيلون Babiloine من قبل قمبيز الثانى ملك فارس (٥٢٩-٥٢١ ق.م) حين أقدم على غزو مصر مؤسسا بذلك الأسرة السابعة والعشرين، فنقل اسم بابيلون آشور Babiloine d'Assirie – أى بابل العراق – إلى مصر. ولهذا السبب سمى سلطان مصر – فى المصادر الأجنبية – ملك بابيلون. وأخيرا، أصبحت تسمى مصر. (١١٥)

• **مساحة القاهرة وتعداد سكانها:** هذا وقد اكتفى جان ثونو بالقول إن مدينة القاهرة شاسعة المساحة، إذ تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة باريس؛ أما تعداد سكانها، فيبلغ خمسة أضعاف سكان العاصمة الفرنسية. (١١٦)

بينما كان جوس فان غستل أكثر تفصيلا فى وصف القاهرة إذ أورد أنه فى وسطها، تتسع مدينة القاهرة حوالى نصف ميل، وحوالى ميل فى كل طرف. وتكتظ بالسكان المقيمين فيها(١١٧). حتى إن المنزل الواحد يعيش فيه معاً ثلاث أو أربع أسر(١١٨).

ومن الاستحالة على القاهرة أن تستوعب كل الراغبين فى سكناها حسب قول غستل؛ لذا نجد الكثير من الناس يقطنون حول المدينة فى خيام وأكشاك وأكواخ وشقوق. ولقد ظهرت تلك العشوائيات(١١٩) نتيجة أزمة الإسكان، وقلة المنازل المشيدة، وضعف إمكانيات هؤلاء التعساء نتيجة ارتفاع أسعار مساكن وسط القاهرة وقلة المعروض منها للسكنى.

ويحسب لجوس فان غستل إنفراده – دون غيره من الرحالة الأوربيين – بتسجيل انتشار العشوائيات على أطراف عاصمة سلطنة المماليك الجراكسة.

وإذا انتقلنا إلى شوارع المدينة(١٢٠)، نلاحظ أنها ضيقة للغاية لدرجة أنه يصعب – فى بعض المواضع- على ثلاثة أشخاص السير معاً فى صف واحد متراص بسبب ضيق عرض الشارع. والملاحظ أيضاً أن تلك الشوارع الضيقة حالكة الظلام حتى أن الخفافيش تطير فيها ليل نهار(١٢١).

وفى اتجاه وسط المدينة، يوجد شارعان جميلان وكبيران يطلق عليهما اسم "البازار الكبير" Les Basares Kebier. حيث يرتادهما جموعاً غفيرة من الناس حتى يصعب السير فيهما إلا بمشقة بالغة، خاصة فى بعض ساعات الذروة من النهار، والملاحظ أن معظم منازل هذين الشارعين عبارة عن مقاه صغيرة أو محلات لبيع المواد الغذائية، حيث يباع فيها الخبز واللحوم والأسماك وكافة أنواع الفاكهة الشهية التى تجذب المرء لشرائها. أما فيما يتعلق بالمشروبات، فلا يباع فيها عادة سوى الماء(١٢٢). كذلك تباع الأخشاب فى بعض المحلات بالميزان(١٢٣). وغالبية الشوارع يتم فصل بعضها عن بعض بواسطة الأبواب(١٢٤).

• **كثرة استهلاك العاصمة لزيت الإضاءة وأسبابه:** وبعودتنا إلى مصنف جان ثونو نجده ينفرد بتسجيل كثرة استهلاك العاصمة المصرية لزيوت الإضاءة فيقول إن القاهرة تستهلك زيتاً للإضاءة(١٢٥) مساو لما تحتسى مدينة أورليان Orleans من النبيذ الناتج عن حصاد القرطم(١٢٦). وأرجع ثينو سبب ضخامة استهلاك الزيوت فى مصر، إلى أن بها العديد من المساجد التى أحصاها بعشرين ألفا(١٢٧)، وأن فى كل مسجد ما يقرب من ثلاثمائة سراج تضاء عادة على الدوام. ثم إن مساكن هذه المدينة تظل مضاءة طوال الليل؛ كما أن كافة الشوارع تضاء هى أيضا طوال الليل، إذ يتم ذلك عن طريق السراج

والقناديل. مما تقدم، ليس من الغريب استهلاك كميات طائلة من الزيوت. كما أنه لا يوجد على الإطلاق شمع مصنوع من شحمِ الغنم (أى من الدهن)، لكن فقط من الزيوت وشمع العسل الأبيض[١٢٨]. هكذا كان تبرير ثونو منطقيا، إذ حرص على إبداء رأيه من فى كثير من المواضع.

هذا بينما أورد جوس فان غستل أنه: "يقال أيضاً إن بهذه المدينة عشرة آلاف مسجداً[١٢٩]، وهى معابد أقامها المِصريون لممارسة الشعائر الدينية الإسلامية كما أوصاهم رسولهم[١٣٠] (ﷺ). وتتميز المساجد بالجمال الفائق وروعة البنيان، إذ يعلوها المآذن الشاهقة، وفى أخرها يرى المرء هلالاً ذهبيا[١٣١].

- **ندرة الأخشاب وتلوث أطعمة الشوارع:** وسجل ثينو افتقار مصر إلى الأخشاب[١٣٢]، رغم كونها ضرورية للمخابز وطهى اللحوم والأطعمة. وتلبية لحاجياتهم سالفة الذكر، يستخدم المصريون عوضاً عن نقص الأخشاب: جريد النخيل والطين المخلوط بالقش وروث الحيوانات. وفيما يتعلق بطهى الأطعمة الشعبية، ذكر ثونو أنه يتم إعدادها فى الشوارع[١٣٣]، وبالتالى انتابه هو وزملاؤه الرعب من تناولها بسبب تعرضها للتلوث بفعل كثرة الغبار والذباب. كما لاحظ أن السكان لا يكفون عن الأكل طوال النهار سواء فى الذهاب أم فى الإياب[١٣٤]؛ وسجل الارتفاع البالغ فى أسعار النبيذ، إذ بلغ ثمن الزجاجة ثلاثين دينارا أشرفيا، وأرجع سبب ذلك على قلة المعروض منه، لكونه محرما طبقا للشريعة الإسلامية؛ ومع ذلك فإنهم يشربونه بشراهة حين يصنعونه.[١٣٥]
- **كثرة السقائين والجمال:** وأحصى ثينو مائة ألف من السقائين – وهو رقم مبالغ فيه – يحملون على رقابهم قرب ماء مصنوعة من جلد الماعز، ويقومون ببيع هذه المياه؛ كما سجل خمسين ألف جمل تحمل المياه إلى المنازل وكذا الشوارع؛ وذلك لريها فى المساء والصباح على حد سواء لترطيب المدينة من شدة حرارة الصيف. وأرجع سبب ذلك على أن المدينة ليست مبلطة وممهدة.

على أية حال، لم يجنح جوس فان غستل إلى المبالغة الفجة التى سجلها جان ثونو، إذ أورد فى سفر رحلته "ولأنه لا يوجد داخل مدينة القاهرة مياه صالحة للشرب، أو بمعنى أدق القليل منها يتم سحبه من نهر النيل، لذا ينتشر فى العاصمة المصرية عشرة آلاف جمل[١٣٦] مهمتهم الوحيدة نقل الماء إلى المدينة. ويتقاضى السلطان عن كل جمل مديناً[١٣٧] Maydin واحداً يومياً".

ولقد ضاعف كل من فرنسسكو سوريانو وأرنولد فون هارف عدد الجمال حاملة الماء وجعله أكثر من عشرين ألف.[١٣٨]

- **طيور الباشِق وأهميتها:** وحدة الوزن السائدة لشراء كافة الاحتياجات هى الليبرة أى نصف الكيلوجرام، فبها يتم شراء اللحوم والأسماك والزيت والعسل، والفواكه التى تتسم بكثرتها. كما أورد ثونو أن بضواحى مدينة القاهرة أكثر من مائة ألف باشِق، الملقب بنمر الطيور لدمويته. وهو طير مفترس ونهم، يصل طول جناحيه مترا ونصف المتر، أما ذيله فهو طويل ومشقوق. ويذكر ثونو أنه لا يُسْمَح بمطاردة تلك الطيور الجارحة أو قتلها؛ لأنها تأتى على الجيف فتتطهر بذلك المدينة من عفن الجيف والديدان، وكذا يتطهر النيل منها إذ يصعب تنظيفه بسبب طوله البالغ، ويحدث ذلك حين تلقى فى أعماقه الجيف. ولاحظ أيضا أنه إذا ألقى شخص ما بقرة أو جمل أو حصان ميت فى الشارع أو فى موضع قريب من منزله، ستنقض عليه جموع غفيرة من طيور الباشق لتلتهمه خلال ساعتين لا أكثر، كما يأتوا أيضا على أكثر عظامه قضما. وكثيرا ما رأى ثونو هذه الطيور الجارحة تنقض على اللحوم التى يشتريها قاطنو القاهرة من محلات الجزارة فى حال عدم إحكام قبضتهم عليها[١٣٩]. وقد

انفرد ثينو بذكر هذه الطيور الجارحة وأهميتها دون غيره من الرحالة، فكانت عيناه كعدستى تصوير تلتقطان كل ما هو غريب عليه ولا يجد مثيلا له فى فرنسا.

● **ثراء القاهرة وأسواقها:** ويعود ثونو من جديد للحديث عن القاهرة قائلا: إن هذه المدينة أكثر ثراء من غيرها من المدن؛ وأرجع ذلك على خصوبة مصر، إضافة إلى أنه يتوافد على القاهرة يوميا أعداد كبيرة من التجار ليشتروا منها حاجياتهم، إذ بها الأسواق المتخصصة لبيع كافة أنواع السلع والبضائع مثل: سوق الذهب والفضة، وسوق الروائح العطرية، والأحجار الكريمة، والحرير، وكافة أنواع الأقمشة، والبهارات، والعقاقير، والسجاجيد وكذا العديد من السلع الأخرى.[١٤٠]

● **النُزل والتجار الأجانب والمصريون:** كذلك يوجد فى القاهرة نزل وفنادق يرتادها جنسيات مختلفة[١٤١] مثل: الأتراك، واليمنيون، والمغاربة – أى تجار المغرب والجزائر وتونس وليبيا – والهنود، والفرس وجنسيات عديدة أخرى[١٤٢]. وينقل عنهم قولهم إن بالقاهرة مائتى تاجر تبلغ ثروة الواحد منهم مليون دينار أشرفى؛ إضافة إلى ألفين آخرين يملك كل منهم مائة ألف دينار أشرفى. ورغم ذلك لا يجرؤ الواحد منهم على الجهر بثروته وأملاكه بسبب الخوف من طغيان السلطان المملوكى وكبار أمراء المماليك الذين يكنون العداء للأثرياء، إذ باستطاعة هؤلاء أن يصادروا أموالهم وممتلكاتهم[١٤٣]. ونستخلص من أقواله تلك أنه كان حريصا على تسجيل كل ما يلتقطه من أفواه بعض القاهريين أو المترجمين.

بعد ذلك ينقل ثونو قصة أحد اليهود الذى كان على علاقة حميمة بالسلطان، وكان هذا اليهودى يملك أطيانا شاسعة اشتراها من ماله الخاص، وكانت تدر عليه يوميا ألف قطعة دينار ذهب أشرفى. وحدث فى ليلة زفاف إحدى بناته أن قام بذبح زرافة للاحتفاء بزفافها، فبدى عليه الثراء الفاحش فى حفل زفافها، فما كان أن فرضت عليه غرامة قدرها ثمانمائة ألف دينار أشرفى، ومع ذلك ظل هذا اليهودى ثريا.[١٤٤]

● **القصر السلطانى:** ويعود ثونو ثانية للحديث عن السلطان ومقر إقامته فيقول إن القصر السلطانى وحدائقه آية من آيات الجمال ويدعو للإعجاب، إذ يفوح منه الثراء البالغ والروعة. ويتكفل بحراسته عشرة آلاف من المماليك، إضافة على عدد مساوٍ لهم من الخيل، ويتحمل السلطان إقامتهم وشرابهم، وإطعامهم. كما أن فى مدينة القاهرة أيضا ما بين عشرة إلى عشرين ألف من المماليك، يدفع السلطان لكل واحد منهم جامكية[١٤٥] شهرية قدرها عشرة دنانير أشرفية.[١٤٦]

● **المماليك السلطانية:** بعد ذلك تناول ثونو مراتب المماليك فقال إن هناك أمراء الثلاثين وأمراء المائة وأمراء الألف: أى أمير يترأس ثلاثين من المماليك، أو مائة، أو ألف مملوك[١٤٧]. ويعقب على ذلك بقوله إن هذا يتطلب من السلطان دفع مبالغ طائلة لهؤلاء من خزانته؛ كذلك كان على السلطان أن يكسب ودهم وتلبية مطالبهم اليومية قدر الإمكان. وفى حال اعتلاء سلطان جديد سدة الحكم، يتحصل كل مملوك ما بين مائة أو مائتى دوكة[١٤٨]؛ ولا أدرى لماذا لم يحدد ثونو المبلغ بالدينار الذهبى الأشرفى كعادته، بل حوَّل قيمته إلى دوكات.

● **إيرادات السلطان:** وقد قدر ثونو إجمالى إيرادات السلطان المملوكى من ربوع سلطنته بحوالى تسعة ملايين قطعة ذهبية أشرفية؛ كما سجل أن السلطان الحالى – أى السلطان الغورى – احتوت خزانته على أربعين مليون دينار أشرفى؛ وأن المتربع على عرش السلطنة منذ عشر سنوات مضت كان يخشى ترك البلاط السلطانى؛ حتى لا يستولى أمير آخر عليه وعلى خزائنه ويعلن نفسه سلطانا. وهذا ما حدث بالفعل مع اثنين من السلاطين السابقين على السلطان الحالى – أى الغورى – فأولهم –

المقصود هنا أبو النصر جانبلاط الأشرفى (٩٠٥هـ) – زج به فى السجن بالإسكندرية مكبلا فى الأصفاد التى طالت رقبته وجسده. وسيقانه[١٤٩] وانتهى بالموت خنقا. وكان الثانى – الملك العادل طومان باى الأول (٩٠٦هـ) – وكان كل سلطان يحرص على تشييد مسجد يخلد ذكراه؛ كما يحرص أيضا على تشييد مدفن رائع يدفن فيه بعد وفاته. [١٥٠]

• **القرافة:** وفى حديثه عن القرافة، يسجل ثونو أنها كانت شاسعة للغاية؛ وذكر أن بالقاهرة أكثر من مائة قرافه[١٥١]. ويبدو أنه سأل عن أسباب تلك الكثرة، فأحيط علما بأن ذلك راجع إلى حرص المسلمين على دفن موتاهم فى أرض بكر، لم يدفن فيها أحد من قبل. وأنه لإكرام المتوفى، يحرص أهله – على الدوام – على زيارته، وأن القرافه تشهد كل أيام الجمع، توافد النساء لزيارة مقابر موتاهم؛ ويحرصون آنذاك على نثر كميات كبيرة من الروائح العطرية على مقبرة المتوفى: كالياسمين، والريحان، والورد، والزيوت والمياه العطرية. ويقولون إن فى ذلك اليوم، تتنفس روح المتوفى تلك العطور الطيبة[١٥٢]. وقد انفرد جان ثونو دون غيره من الرحالة الأجانب بذكر هذه المعلومات الجديدة.

• **أهل الذمة: تعدادهم ومعابدهم:** ويشير ثونو بعد ذلك إلى أهل الذمة ومعابدهم فى سلطنة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م) آنذاك وتعدادهم، فيذكر أن فى مدينة القاهرة أكثر من عشرة آلاف من اليهود[١٥٣]، لهم شوارعهم ومعابدهم وأسواقهم[١٥٤]؛ إضافة إلى أكثر من عشرة آلاف من المسيحيين منهم الشوام والأقباط[١٥٥] واليعاقبة[١٥٦] وأن هؤلاء المسيحيين[١٥٧] لهم العديد من الكنائس وفق مذاهبهم[١٥٨]، منها: كنيسة العذراء الشهيرة بالمعلقة[١٥٩] وكنيسة القديسة باربارة[١٦٠]. هكذا اكتفى جان ثونو بذكر الكنيستين فى نصف سطر رغم كونه رئيس أحد الأديرة الكاثوليكية، مما يؤكد أنه سمع عنهما ولم يزرهما لكون أقباط مصر – من وجهة نظره – هراطقة أى خارجين عن تعاليم المسيحية الصحيحة، إذ إنهم يدينون بالمسيحية على المذهب المنوفيزى – الأرثوذكسى – بينما يدين الأوربيون بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى. وربما سبب هذا التعصب المذهبى الأعمى؛ يعود إلى كون جان ثونو يترأس أحد الأديرة الكاثوليكية.

• **دير المحرق:** بعد ذلك يبتعد جان ثونو فجأة بعيدا عن القاهرة ليتحدث عن مدينة منفلوط التى تبعد مسافة يومين عن العاصمة المصرية حسب قوله؛ ويذكر أن بها ديراً لليعاقبة يطلق عليه المسلمون دير المحرق، فى حين يسميه الأوربيون دير الأنبا مقار[١٦١] Saint Macaire. ونلاحظ انفراده دون غيره من الرحالة الأوربيين بزيارة هذا الدير.

• **الأهرامات:** ثم تحدث عن الأهرامات فقال إنها خارج مدينة القاهرة، وهى الموضع المخصص لدفن ملوك مصر من الفراعنة. والأهرامات – حسب قوله – تقع على مسافة فرسخين[١٦٢] من القاهرة[١٦٣]. وأدرجت من بين عجائب الدنيا السبع وذكر أن أكثرها ارتفاعاً وأضخمها هرم خوفو، لكنه الأقل فخامة من وجهة نظره، وشارك فى بنائه مائتا ألف رجل، واستمر البناء لمدة اثنين وعشرين عاماً. واستخدم فى سبيل تشييده الأحجار الضخمة المصقولة ملتصقاً الحجر فوق الآخر. ثم علق على كثرة الأحجار المستخدمة بقوله: "أعتقد أن أعداد تلك الأحجار تكفى لتشييد مدينتين مثل باريس"؛ وبعد زيارته للأهرامات هو ومرافقيه أجمعوا على أنه ليس فقط من عجائب الدنيا، بل أيضاً يعد صرحاً لا يصدقه عقل. وهناك هرمان آخران، أولهما هرم ابن خوفو – أى خفرع – والثانى شيده منقرع[١٦٤]. وبالقرب من الأهرامات يوجد تمثال أبى الهول وهنا يقارن جان ثونو ارتفاعه البالغ

بالقول إنه يبدو أعلى من أبراج كنيسة نوتردام دو باريس Nostre Dame De Paris. وهناك أيضاً مقابر أخرى على مسافة سبعة فراسخ من هذا الموضع فى اتجاه النيل(١٦٥).

المطرية: ويذكر ثونو أنه فى الجانب الآخر من القاهرة، فى الاتجاه نحو الشرق، توجد قرية تسمى المطرية، يذكر أنها ترتبط بلجوء العذراء مريم مع المسيح عليهما السلام إلى مصر هروباً من اضطهاد هيرودوس. وهناك شجرة تين ضخمة تظللا بها وأكلا من ثمارها. ويواصل سرده قائلاً إن المسلمين يتعطرون بهذه الشجرة تبركاً بها عندما يمرضون، إذ كانوا يعتقدون أنه سيتم شفائهم فى الحال. وأن شجرة التين تلك - كغيرها من أشجار مصر - تأتى بثمار طيبة طوال العام. وفى هذا القول مبالغة واضحة. ولاحظ ثينو بعينيه الثاقبتين أن جذع تلك الشجرة وفروعها شاخت بفعل الزمن.

وبالقرب من شجرة التين تلك، هناك نبع ماء عميق، كانت العذراء مريم تستخدمه فى غسل ملابس المسيح (عليه السلام). وكانت تلك المياه تستخرج من العين لرى حدائق البلسم. وسجل ثونو أنه بوصول العائلة المقدسة، ازدادت غزارة مياه النبع حتى فاضت على حَلَقة البئر، وبالتالى تم رى هذا الموضع بكامله. وأشار ثونو أنه فى يوم عيد صعود المسيح إلى السماوات، يتوافد على الكنيسة هناك أكثر من ألفين من المسيحيين(١٦٦).

- **البلسم وأهميته:** ولاحظ ثونو أن البلسم يتواجد بكثرة فى هذا الموضع، ويعد أحسن بلسم فى العالم؛ إذ يفوق فى جودته كل من بلسمى الهند وبلاد اليمن السعيد. وهذا البلسم الممتاز يستخدم فى عديد من الأغراض، أولاً: لأنه قوى المفعول ويطهر الجروح الحديثة حال استخدامه؛ كما أنه يتجاوز الجرح الذى يصيب اليد بفعل سكين، فيتم دعك الجرح بهذا البلسم؛ كذلك إذا وضعنا نقطة بلسم فى إناء صغير به ماء، فإنها تنزل كلها فى أعماق الإناء، ويتم استخراجها منه بواسطة دبوس؛ وأخيراً يستخدم البلسم للحيلولة دون إصابة الدواجن واللحوم بالعفن(١٦٧).

وسجل ثونو أنه أثناء تواجده فى تلك الحديقة، لم ير إلا ما بين تسعة أو اثنى عشرة من فصيلة معينة من السحالى تشبه تلك التى فى وسط فرنسا وأسبانيا(١٦٨).

- **ملابس المصريين:** بعد ذلك، تناول ملابس المصريين ذاكراً أنها تتسم بالبساطة ولا غرابة فيها، فهى مصنوعة من التيل الخفيف أو من الحرير المجدول بقطن فى وسطه. ومع ذلك، فالقلة ترتدى الجوخ. وفيما يتعلق بسراويلهم، فهى مصنوعة من التيل أيضاً، وتشبه سراويل البحارة الفرنسيين. كذلك حال سراويل النساء؛ كما أنهن يلبسن أحذية طويلة الرقبة - بحيث تغطى القدم وأسفل الساق، وبها خرز - أو القباقيب، أو أحذية لامعة ومذهبة. ولا يتجولن فى المدينة وهن كاشفات الوجه على الإطلاق، فوجههن على الدوام مغطاة بقطعة من التل لحجبه عن الرؤية، حتى لا ينظر إليهن أحد ويثرن شهوته وغريزته. لذا، عندما يأتى إلى علم أحد المماليك أن إحدى الجميلات من النساء أو البنات فى منزل ما، يقدم على اقتحامه، وتحت تهديد السلاح، يطرد بقسوة الآباء والأمهات والأخوات والأزواج ويرتكب جرماً حين ينقض على فريسته ويغتصبها دون عائق تلبية لشهوته الدنيئة(١٦٩).

ويعقب ثونو على تلك الجريمة البشعة بالقول إن العديد من السلاطين حاولوا جاهدين وضع حد لمثل تلك الجرائم، بل وفرضوا عقوبات على مرتكبيها للقضاء عليها، لكنهم فشلوا؛ ويقارن بين تلك الجريمة وجريمة أخرى هينة للغاية، ومع ذلك من يرتكبها ينال عقوبة قاسية؛ إذ يذكر أنه إذا اعتدى أحد الأشخاص على أحد المماليك، سواء كان مرتكب الجريمة على حق أو على غير حق، ستكون عقوبته قطع اليد أو سمل العينين(١٧٠).

وبذلك أنهى جان ثينو حديثه عن القاهرة التى جذبت انتباهه وانتباه مرافقيه، وحرص على إعداد مصدر بالغ الأهمية عن كافة ما لقطته عينيه الفاحصتين عن أحوالها آنذاك.

- **الخاتمة:**

مما تقدم، **أنفرد** جان ثونو بذكر كثرة استخدام مدينة القاهرة لزيوت الإضاءة؛ وبعينيه الفاحصتين أرجع ذلك على كثرة أعداد المساجد المنتشرة فى ربوعها، إضافة إلى الاستهلاك المنزلى وإنارة الشوارع طوال الليل. كما انفرد بتسجيل مراسم الاحتفال بيونانى أشهر إسلامه فى أحد المساجد، وما صاحب ذلك من تكريم.

وحرص – دون سواه - على تسجيل طيور الباشِق بكثرة وامتناع المصريين عن صيدها أو قتلها لأهميتها البالغة فى التهام الجيف، وبالتالى فهى َصديقة البيئة.

وانجذبت عيناه بجمال النُزُل الذى أقام فيه وفخامة تشطيباته، فشهد ببراعة المعمارى المصرى وتذوقه الفنى. وبالتالى زودنا بلوحة مفصلة بالغة الجمال حتى كاد أن يكون فناناً وليس مقدم أحد الأديرة. إلا أنه **بالغ** حين قال إن بالقاهرة مائة ألف نزل أكثر جمالا من النُزُل الذى أقام فيه. علما بأنه قدر تكاليف تشييد نُزُله بثمانين ألف دينار ذهبى أشرفى وبالتالى لسجلنا عليه هذه المبالغة الثانية.

وكان من الطبيعى – كعادة معظم الرحالة – أن لا يسلم سرده من **المبالغة** العددية لانعدام الإحصاءات الدقيقة آنذاك. فمن الطبيعى أن زلته تلك سببها تصديق الرواية الشفهية. وبالتالى أحصى عدد السقائين بمائة ألف وسجل عدد الجمال بخمسين ألفا؛ بينما اختصر جوس فان غستل عددهم إلى الخمس، أى عشرة آلاف جمل فقط.

كما أنه نتيجة انبهاره بالنيل وطميه وأهمية هذا الطمى كغذاء للأسماك، فقد تخيل أن الطمى وقت فيضان النيل كان يشكل الجزء الخلفى من الأسماك. **وبالغ** أيضا حين سجل أن السلاحف وصل حجمها إلى حجم الإنسان.

ومن **المآخذ** التى سجلت عليه، جنوحه إلى الإيجاز الشديد أحيانا وذلك فى حديثه عن مساحة القاهرة وتعدادها السكانى؛ ووصفه لبولاق رغم أهميتها البالغة آنذاك؛ وكذا مراسم البلاط. وبالتالى عقدنا مقارنة بين ما أوجزه وما فصله غيره من الرحالة الآخرين المعاصرين كفيلكس فابرى، وبرنار دو بريدنبخ، وجوس فان غستل، وأرنولد فون هارف وليوناردو فرسكوبلدى، وإيمانويل بيلوتى، وفانسلب، وعوبديا ودمينيكو تريفيزان معاصر ثونو وغيرهم. ولم يفتنا تسجيل روايتى ابن إياس عن مراسم البلاط وقت زيارة كل من جان ثونو وتريفيزان لأهميتهما البالغة، ولكونه المصدر الإسلامى المعاصر الوحيد وغير المعاصر الذى فصل الحديث عن مراسم البلاط.

وأخيرا، كعادة كافة الرحالة، أكثر جان ثونو من عقد **المقارنات** بين القاهرة وعاصمة بلاده باريس وكذا أورليان. ففى حديثه الموجز عن مساحة القاهرة وسكانها اكتفى بالقول إن مساحة القاهرة تفوق مساحة باريس بثلاث مرات؛ وعدد سكان باريس خمس عدد سكان القاهرة، وأن أحجار الأهرامات تكفى لبناء باريس مرتين. وشبه جلوس السلطان على عرش السلطنة (الدكة) بجلوس خياط الحريم فى فرنسا.

على أية حال، يعد مصنف جان ثونو المعنون "رحلة فيما وراء البحار: مصر، جبل سيناء، فلسطين" صفحة جديدة عن أحوال مصر عامة وعاصمتها القاهرة على وجه الخصوص وذلك فى مستهل العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى / أواخر العقد الثانى من القرن العاشر الهجرى.

هوامش البحث

(*) اختصارا لصفحات البحث، سنكتفى بذكر المصادر والمراجع كاملة حين ترد لأول مرة فى الحاشية تجنبا لتخصيص صفحات لقائمة المصادر والمراجع فى آخره.

(١) فى مساء ١٥ نوفمبر ١٩٨٨، ألقيت محاضرة فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بعنوان: "مصر فى كتابات الحجاج الروس فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين: طبعت فى كتاب – القاهرة ١٩٨٨؛ كما أعدت طبعها فى الجزء الرابع من سلسلة "بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – القاهرة ٢٠٠٧ – البحث الرابع – صفحات ١٨٥-٢٤٣.

(٢) أورد الرحالة جوس فان غستل فى مصدره رحلة إلى مصر (فى سنتى ١٤٨٢-١٤٨٣م) أنه أثناء إقامة الرحالة فى القاهرة، حدث لهم ما يحدث عادة فى بلدان أجنبية أن يتعرفوا على أناس من نفس بلادهم أو من بلدان مجاورة لبلادهم. ففى القاهرة كان يقطنها أحد المماليك ويدعى نصر الدين من مواطنى دانتزج Dantzig فى بروسة Prusse. كان مسئولا عن بيت المال Trésorier، وكان قد تزوج بابنة الخازندار الكبير، وهو المسئول عن نفقات السلطان، وهى وظيفة بالغة الأهمية. وبمجرد أن علم هذا المملوك أن بعض رحالة الأراضى الواطئة Néerlandais كانوا فى زيارة رحبوا به وتعرفوا عليه، ودارت مناقشات مستفيضة معه أثناء إقامتهم فى القاهرة وضواحيها. وعلموا منه الكثير من الأشياء عن أحوال البلاد ومكانتها، وكذا سلطات السلطان وقدراته واستعداداته، مما يؤكد حالة التجسس. انظر: Dopp, P.H.. Joose de Ghistele, in Bulletin de la Société Royale de Géographie, Septembre 1954, t. XXVII, pp. 29-30; Bauwens-Préaux, R., Voyage en Egypte de Joos (هكذا) Van Ghistele 1482-1483, le Caire 1976, pp. 12-13.

(٣) أورد الرحالة فيلكس فابرى أنه أطلق على مدينة القاهرة أحيانا اسم "الدلتا الكبرى" Grand Delta. انظر: Voyage en Egypte, le Caire, 1976, pp. 524-525, 637.

(٤) فايز نجيب إسكندر: "مصر فى كتابات الحجاج الروس فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين"، بحث نشر ثانية فى كتابى: "بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى" – القاهرة ٢٠٠٧م – جـ١، ص١٨٥-١٨٧؛ "القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جوس فان غستيل (١٤٨٢-١٤٨٣م) دراسة مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين"، بحث منشور فى كتابى: "بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى" – القاهرة ٢٠١٠م – جـ٥، ص ١٢٧-١٢٩.

(5) Jean Thenaud, Publié par Charles Schefer, Paris, 1864, p. 54.

(٦) عن تفاصيل ذلك انظر: فايز نجيب إسكندر: كتابات ابن إياس وابن زنبل عن الفتح العثمانى لمصر – دراسة تحليلية نقدية مقارنة، بحث منشور فى كتابى: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – القاهرة ٢٠٠٧م-جـ٢، ص٢٧١-٢٨٨.

(٧) تقع أنجولام Angoulème على مسافة ٤٤٣ كم جنوب غرب العاصمة الفرنسية باريس وهى إحدى مقاطعات شارنت Charente وتطل على نهر شارنت. للتفاصيل انظر:

Bouillet, M. N., Dictionnaire Universel D'histoira et de Géographie, Paris, 1871, pp. 81-82.

(8) Thenaud, p. 1.

(9) Thenaud, pp. 1-2.

(١٠) لويز دو سافوا Louise de Savoie هى إبنة فيليب Philippe كونت برس Bresse، وكانت قد تزوجت فى فبراير سنة ١٤٨٨م شارل دورليان Charles D'orléans كونت أنجولام. وتوفت هذه الأميرة سنة ١٥٣١م. أنظر: Thenaud, p. 2, n. 2، وللتفاصيل انظر: Bouillet, p. 1126.

(11) Thenaud, pp. 2-3.

(١٢) لويس الثانى عشر Louis XII الملقب بـ"أبو الشعب" ولد فى مدينة بلوا Blois سنة ١٤٦٢م. وهو ابن شارل دوق أورليان حفيد شارل الخامس المتوفى سنة ١٥١٥م. عرف فى أول الأمر باسم دوق أورليان. دب نزاع بينه وبين آن دو بوجو Anne de Beaujeu الوصية على الملك القاصر شارل الثامن Charles VIII، وأسر فى بورج Bourges إبان قتال مع جيوش الملك الشاب سالف الذكر طوال ثلاث سنوات إلى أن أطلق شارل الثامن سراحه، وأدرك آنذاك خطأه إلى أن اعتلى العرش سنة ١٤٩٨م، وشهد أوائل عهده العفو التام عن كل أعدائه، وقام بالعديد من الإصلاحات الاقتصادية. وشهدت فرنسا فى عهده ازدهارا فى العلوم والفنون والآداب والزراعة والتجارة. وخلفه على العرش فرنسوا الأول François I لكونه لم ينجب ولدا ذكرا. للتفاصيل انظر: Bouillet, p. 1120.

(١٣) وردت **"آياس"** بأشكال مختلفة منها: Ayas, Lajasso, Laicum, Lajazzo, Laiacium, Laizo, Laias. انظر: Pelliot, p.,notes on Marco Polo, Paris, 1936, t. II, p. 760; Boase, T. S. R., The Cicilian Kingdom of Armenia, London, 1978, p. 155، ويسميه ابن حبيب "الحصن الأطلس" ويقول عنه إنه "حصن فى قاموس البحر مؤسس". انظر: درة الأسلاك، ورقة ١٦٥ ب وعن هذا البرج انظر: المقريزى: السلوك، جـ٢، ق٢، ص٤٢٩-٤٣٠؛ الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، ص١٠-١١، كما ذكر ابن حبيب أن

"آياس على ساحل البحر، ولها فيه ثلاثة حصون وهى: أطلس وسمغة وآياس، وبه تعرف قلعة المدينة". انظر مخطوط: درة الأسلاك فى دولة الأتراك" ورقة ١٦٥ ب. وكذلك فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى – ص٢٨٦، حاشية ٣، وأورد أبو الفرج بن العبرى المتوفى فى حلب سنة ١٢٨٦م أن **"قلعة آياس"** شيدت سنة ١٢٨٢م، وكانت خير موضع يدافع عن ميناء آياس. انظر: Bar Hebraeus, The Chronography of Gregory Abu'l Faraj, trs. E. A. Wallis Budge, Oxford, 1952, p. 465، انظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: تجارة مملكة أرمينية الصغرى البحث الثالث فى كتابى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – القاهرة ٢٠١٠ – الجزء الخامس، ص٧٨-٧٩، حاشية ٣٤.

Trevisan, pp. 186-187

(١٤) **"الشاه إسماعيل الصفوى"** هو مؤسس الأسرة الصفوية، حكم بلاد فارس خلال الفترة من ١٥٠٠ إلى ١٥٢٣م، كان والده أحد حكام شروان، استولى إسماعيل الصفوى على ربوع بلاد فارس وقام بغزو بغداد سنة ١٥٠٩م؛ إلا أن السلطان سليم الأول ألحق به هزيمة فى معركة جالديران سنة ١٥١٤م. وحظى الشاه إلى يومنا هذا بتبجيل الإيرانيين، وقبيل وفاته سنة ١٥٢٣م قسم مملكته بين أولاده. للتفاصيل انظر: عبد اللطيف الصباغ: تاريخ الدولة العثمانية – بنها ٢٠١٠، ص٤٨-٤٩؛ ٨٩-٩٢. وكذلك: Bouillet, p. 935; Thenaud, p. 3, n. 2. Trevisan, p. 181.

(١٥) للتفاصيل انظر: Schefer, CH., Le Voyage D'outremer, Introduction, pp. LXVI-LXVIII; p. 5, n.1.

(١٦) انظر: بدائع الزهور فى وقائع الدهور – جـ٤، ص١٤٧.

(17) La Relation de L'ambassade de Domenico Trevisan Auprès de Soudan D'Egypte, Publié par CH. Schefer, Paris, 1864, pp. 146-297.

وعن تريفيزان الذى يعد من أعظم رجال جمهورية البندقية آنذاك لما تقلده من مناصب وأدّاه من مهام. انظر: المصدر السابق: Introduction, p. LXV, n. 1.

(18) Trevisan, pp. 191-192.

عن الدوادار زودنا القلقشندى برواية مختلفة إذ أورد أنه مكلف "بتبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر ويأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب. وإذا خرج عن السلطان بكتابة شئ بمرسوم، حملت رسالته وعينت فيما يكتب...وفى هذه الوظيفة عدة من الأمراء والجند". انظر: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩.

(١٩) والأمير الكبير هو أكبر الأمراء وأعظمهم وأقربهم إلى السلطان. وكان السلطان يستشيره فى مهام الأمور، ويأخذ برأيه (انظر: السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة- القاهرة ١٨٨١م، ص ٨٥). ووظيفته نيابة السلطنة أو كفالة السلطنة. وهو على رأس رجال البلاط. يتركه السلطان فى قصره ليدير له شئون السلطنة فى وجوده بالنيابة عنه. ولذلك عرف بالسلطان الصغير أو الثانى أو المختصر. (للتفاصيل انظر: القلقشندى: ج٤، ص ١٦-١٧؛ ج٥، ص ٣٥٣-٣٥٤؛ العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف- القاهرة ١٣١٢هـ/١٨٩٢م- ص٦٥-٦٦: ٩٢-٩٣). ومن مظاهر تقدير السلطان للأمراء، مراعاة مكانتهم أثناء الخدمة والمواكب. وجرت العادة منذ قيام سلطنة المماليك على تسمية قديم الهجرة من الأمراء باسم "الأمير الكبير" ويجوز أن يكون منهم جماعة فى عصر واحد. فيجلسهم السلطان فى رأس الميمنة بصرف النظر عن وظائفهم. وعنى السلاطين كذلك بترتيب الأمراء حسب أقدميتهم فى الأمرة عند الدخول فى حضرتهم، فيستقبلهم السلطان واقفاً. انظر: السيد الباز العرينى: المماليك، ص ٢٣٦. Trevisan, p. 192

(٢٠) "اميرى دامبواز" هو شقيق الكاردينال جورج دامبواز، كبير وزراء الملك الفرنسى لويس الثانى عشر. انتخب مقدم فرسان القديس يوحنا بالقدس وذلك فى ١٠ يوليو ١٥٠٣م؛ وفى العام التالى عاد إلى جزيرة رودس حيث توفى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٥١٢م. انظر: Thenaud, p. 5, n. 1.

(21) Thenaud, p. 5.

(٢٢) تقع "إيج مورت" Aigues – Mortes على مسافة ٣١ كم جنوب مدينة نيم Mîmes، وتوجد فى ضواحيها ملاحات شاسعة وكذا العديد من البرك والمستنقعات والمياه الراكدة مما جعل هوائها غير صحى. وكانت من قبل تطل على البحر المتوسط، ولكنها الآن تبعد عنه مسافة خمسة كيلومترات. وفى سنة ١٢٤٨م، اشتراها الملك الفرنسى لويس التاسع، ومنها انطلقت حملتيه فى سنتى ١٢٤٨ و١٢٧٠م. وفى عام ١٨٤٩م، أقيم لتخليد ذكراه تمثالا. للتفاصيل انظر: Bouillet, p. 28. وكذلك: فايز نجيب إسكندر: مشروع حملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة منحول لبروكردوس Brocardus "الطريق المقترح للعبور إلى ما وراء البحار" البحث الثانى فى كتابى: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – الجزء الخامس – القاهرة ٢٠١٠م – ص٤٠ حاشية ٨٩.

(23) Thenaud, pp. 6-7.
(24) Thenaud, p. 7.
(25) Thenaud, p. 10.
(26) Thenaud, p. 14.
(27) Thenaud, pp. 14-15.

(28) Thenaud, p. 20.

(٢٩) ابتلى الناس – ولاسيما القاهريون – فى زمن السلطان الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠١-١٥١٦م) بجملة من الأحداث والنوازل التى أفضت مضاجعهم، وراح ضحيتها كثير منهم ومنها الأوبئة والطواعين، والغلاء، والحرائق، واضطراب الأمن وسطو اللصوص والمجرمين. ويذكر المؤرخ المعاصر ابن إياس أن الغورى "مات وله من العمر نحو ثمانى وسبعين سنة... وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون." (انظر: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٥، ص٨٧). وفى موضع آخر كان ابن إياس بليغا فى تقييم فترة حكمه حين أوجزها قائلا: "وكان للغورى محاسن ومساوئ، لكن مساوئه أكثر من محاسنه". انظر: بدائع الزهور، جـ٥، ص٨٩.

(30) Thenaud, pp. 21-22.

(٣١) كان "فيليب دو بيرتز" Philippe de Peretz منذ زمن طويل قنصلا للفرنسيين والقطلان فى الإسكندرية واتسم بدماثة الأخلاق والحنكة السياسية والخبرة الفائقة. وعندما دمر الأسطول المصرى فى آياس، أصدر السلطان الغورى أوامره بإلقاء القبض عليه، واقتيد مسلسلا فى الأصفاد إلى القاهرة، حيث زج به فى سجن المعصرة Massera. للتفاصيل انظر: .Trevisan, pp. 195-196; Thenaud, p. 4, n. 3

(32) Thenaud, p. 22.

وقد جاء فى هذا المصدر بالفرنسية القديمة: "Les coffres et bagaiges furent conduictz dès le port audict logis par deux cameaulx pour lesquelz furent payez **Cinquante Seraphs D'or**, car telle est la coustume." والملاحظ أن كلمة "سيراف" Seraphs لم نعثر عليها فى دائرة معارف لاروس Encyclopédie Larousse ولا فى القواميس الفرنسية القديمة والحديثة ولا القواميس اللاتينية. وهدانا الله إلى التعمق فى قراءة مصادر عصر الغورى ثم الفترة السابقة عليه أى عصر الأشرف برسباى (٨٢٥-٨٤١هـ / ١٤٢٢-١٤٣٨م)، وبذلك عثرنا أن الأمر يتعلق بالدينار الأشرفى نسبة إلى السلطان الأشرف وأن الرحالة جان ثونو شوه كلمة الأشرفى إلى "سيراف" Seraphs وصحتها بالفرنسية Ashrafi "أشرفى". وقد بذلنا مجهودا مضنيا حتى اكتشفنا ترجمتها الصحيحة التى شوهها ثونو كلية وسنتحدث عن تلك العملة فيما بعد.

(33) Thenaud, p. 22.

(٣٤) فى مستهل القرن الخامس عشر الميلادى / القرن التاسع الهجرى كانت دوكة Ducat البندقية العملة الذهبية الأوربية الوحيدة الأكثر انتشارا واستعمالا فى ربوع سلطنة المماليك الجراكسة. وقد أدخلت تلك العملة فى القاهرة فى عهد السلطان برقوق (١٣٨٢-١٣٩٨م) وكان الرحالة الفلورنسى ليوناردو فرسكوبلدى Lionardo Frescobaldi أول من أشار إليها فى حديثه عن زيارة القاهرة سنة ١٣٨٤م، إذ أورد أن اليهود والمسيحيين كانوا يدفعون ضريبة رأس سنوية قدرها دوكة Docat واحدة. (انظر: Dopp, p. H., Lionardo Frescobaldi, IN: B. S. R. G., t. XXIII, Juin 1950, p. 135.). ويرجع السبب الرئيسى لإقبال العديد من البلدان الإسلامية على استخدام دوكات البندقية هو وزنها الثابت (تزن ٣,٣٠ جراما ذهبا)، وعيارها المرتفع، إضافة إلى دقة سكها من حيث استدارة القطعة منها تماما؛ هذا بينما كانت الدنانير المملوكية مختلفة العيار والوزن والسمك والقطر، لذا كان التجار يضطرون عند التعامل بها إلى وزنها، بينما يكتفون بعدد الدوكات. وكان روجر الثانى Roger II حاكم أبوليا Apaulie أول من ضرب الدوكات. وفى ١٢٨٤م، ضرب دودج البندقية جان داندولو الدوكات البندقية. ولقد وصف القلقشندى الدنانير الأفرنتية (وهى عملات ذهبية ضربت على مثل الدوكات) والدوكات وصفاً إجماليا فقال إنها "مشخصة – أى منقوش عليها رسوم أشخاص – فعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى ضربت هذه العملة فى عهده، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح إلى روما". انظر: فايز نجيب إسكندر: بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – البحث الرابع: "القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جوس فان غستل (١٤٨٢-١٤٨٣م) دراسة مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين" القاهرة ٢٠١٠ – جـ٥، ص١٣٥، حاشية ٣٦. انظر أيضا: Van Gennep. A., Le Ducat Vénitien en Égypte, IN R. N., t. I, 1897, pp. 499-501.، هذا وقد سجل كل من فيلكس فابرى (١٤٨٣م) Felix Fabri ورفيقه برنار دو بريدنبخ (١٤٨٣م) فى مصدريهما أن الدوكة الواحدة تساوى خمسة وعشرين درهما فضيا؛ إذ جاء فى مصدريهما: "25 Madines font un Ducat"، انظر: Fabri, Voyage en Egypte, Paris, 1975, t. II, p. 570; Bernard de Breydenbach, les Saintes Pérégrination (1483), le Caire, 1904, p. 64.

(35) Thenaud, p. 22.

(٣٦) زودنا فابرى بتفاصيل عن مدينة الإسكندرية فاقت ما أورده جان ثونو وغيره، إذ تحدث عن موقعها الجغرافى (انظر: pp. 345, 717, 848, 849)؛ وإقدام الإسكندر الأكبر على تأسيسها (انظر: p. 716)؛ ومنارتها (pp. 719-721)؛ وأسوارها (pp. 655, 657, 660, 948, 953, 967)؛ وأبوابها الثلاثة وهى: باب رشيد (pp. 656, 949)، وباب الأجانب (pp. 656, 949)، وباب البحر (pp. 684, 956, 961). انظر أيضا: Emmanuel Piloti, l'Egypte au commencement du quinzième siècle, ed. P. – H. Dopp., Le Caire, 1950, pp. 36-38.

(٣٧) فاروس Pharus اسم جزيرة، كانت أمام مدينة الإسكندرية، وفوق تلك الجزيرة بنيت المنارة: وقد تحدث عنها بإفاضة الرحالة فابرى. انظر: .Voyage en Egypte. Pp. 718-720, 791

(٣٨) أورد الرحالة اليهودى بنيامين بن يونة التطيلى النبارى الأندلسى (٥٦١-٥٦٩هـ / ١١٦٥-١١٧٣م) أن فى الإسكندرية برجا مرتفعا يدعى "المنارة" ويسميه العرب "منار الإسكندرية". وأن قديما كان فى أعلى هذا البرج مرايا من الزجاج، لمراقبة مراكب القراصنة القادمة من الدولة البيزنطية وبلاد المغرب، من مسافة خمسين ميلا عن الشاطئ، فتستعد لمجابهتها ومواجهتها. انظر: .Bergeron, p., Voyage de Benjamin de Tulède, la Haye, t. I, pp. 61-62

(٣٩) فى بنيامين التطيلى "على مسافة خمسين ميلا". انظر الحاشية السابقة.

(40) Thenaud, p. 23.

والمقصود هنا "جزيرة فاروس" Insula Pharus، ففى مرساها رصيف يمتد فى البحر إلى مسافة ميل تقريبا، كان يوصل ما بين المدينة مدينة الإسكندرية وجزيرة فاروس حيث المنار الشهير الذى شيدت فى موضعه قلعة قايتباى وذلك سنة ١٤٨٠م. ومما يذكر أنه كان للمدينة ميناءان: الميناء القديم – الذى ذكره جان ثونو – وكان مفتوحاً ناحية الغرب، ولا يسمح بدخوله إلا لسفن المسلمين، بينما كان محظورا على المسيحيين دخوله حتى من جهة اليابسة؛ أما الميناء الثانى فهو الميناء الجديد الذى لم يشر إليه جان ثونو، ويفتح ناحية الشمال، ويستقبل السفن المسيحية. انظر: Breydenbach, pp. .65-66

(٤١) يؤخذ على جان ثونو قوله إن الإسكندرية دمرت بكاملها حتى الأعماق، ويعود هذا الدمار إلى عهد الملك القبرصى "جاك دولوسنيان" Jacques de Lusignen وصحة ذلك بطرس لوسنيان Pierre. إذ جاء فى هذا المصدر بالفرنسية القديمة:
"... Si est elle toute ruinée par le dedans, car dès icelluy temps que ung roy de Chippre, Jacques Lusignen l'eust gastée." انظر: P. de Machaut, la Prise d'Alexandrie, publiée par de mas-latrie, Paris, 1877, pp. 64-110. وكانت تلك الحملة فى ١٠ أكتوبر ١٣٦٥م. .

(42) Thenaud, p. 27.

(٤٣) الفرسخ أربعة كيلومترات تقريبا. المنهل بيروت ١٩٨٠، ص٦١٤.

(44) Thenaud, p. 28.

(٤٥) وتحت عنوان "قملة فرعون" ذكر فابرى أنها ديدان خضراء ضخمة ومستديرة، ولها أرجل عديدة بمجرد النوم تتسارع لتمص دم النائم كالبرغوث. و"قمل فرعون" بالفرنسية الحديثة Poux de Pharaon رمادية اللون فى حجم البندقة، تتميز بالشراسة إذ ينتج عن لدغتها ندبة كبيرة، ولا علاج للدغتها إلا عصير الليمون، ويقال إن فرعون ابتلى بها. للتفاصيل انظر: Fabri, t. I, pp. 75, 311; t. III, pp. 876, 880; Meshullam (1481), The Jewis Travellers, ed. E. N. Adler, London, 1930, p. 178; Dopp., pp. 115-116. .Thenaud, ppl. 28-29

(٤٦) تُطِل "المعدية" على البحر المتوسط شرق الإسكندرية، ويليها إدكو ثم رشيد (المؤلف)..

(٤٧) عن مدينة رشيد انظر: Piloti, l'Egypte au commencement de Quinzième Siècle, par P. H. Doop, Le Caire, pp. 21-22; Fabri, p. 581, 590-592.

(48) Thenaud, pp. 29-30.

(49) Thenaud, p. 30.

(50) Bauwens – Préaux, p. 20; Dopp, Josse, p. 9.

وقد تشابهت رواية الرحالة الألمانى أرنولد فون هارف الذى زار القاهرة سنة ١٤٩٧م مع رواية الرحالة البلجيكى سالف الذكر جوس فان غستل. انظر:

Arnold Von Harff, Trad. P. H. Dop, in: B. S. R. G. E., le Caire, Septembre 1954, t. XXVII, p. 41; Arnold Von Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, ed. Letts, London, 1946, p. 111.

(٥١) للتفاصيل انظر: .Voyage en Egypte, t. II, pp. 528-529..

(52) Thenaud, p. 30.

(٥٣) ذكر الرحالة فيلكس فابرى أنه فى الأزمنة الغابرة أطلق على نهر النيل اسم "إيجبتوس" Aegyptus تارة. (انظر: Voyage en Egypte (1483), p. 981.) و"نيليون" Niléon تارة ثانية. انظر: Fabri, p. 607.، والجدير بالذكر أن فيلكس فابرى يعد أهم رحالة أوربى معاصر لجان ثونو تحدث بإفاضة عن نهر النيل، إذ ذكر الأسماء القديمة لهذا النهر الذى حظى بإعجابه الشديد (انظر: pp. 606-609)؛ وتحدث عن منابعه (pp. 609-619, 723)؛ وأنه أحد أربعة أنهار الجنة (pp. 58, 613, 614, 634, 891, 905, 930.)؛ ووصف مجراه (pp, 616-617, 942, 943)؛ ودلتا نهر النيل (pp. 633, 930)؛ وعن قناة تمتد من النيل إلى البحر الأحمر (pp. 343, 347-348, 891.)؛ والمسافة بين نهر النيل والبحر الأحمر (p. 348)؛ ومصباته، وطمى النيل، وإخصابه للأراضى المصرية، وفيضانه، وفروعه، ومياهه الصالحة للشرب، وأسماكه، وريه للأراضى، وكطريق تجارى للبضائع الآتية من الشرق، وموانى القاهرة النيلية، والكبارى المقامة فوقه. وهكذا لم يترك فابرى لا شاردة ولا واردة عن النيل إلا وذكرها.

(٥٤) أورد جان ثونو بالفرنسية القديمة: "Le Fleuve du Nil …. Attire tant de terre et de Lymon avecqües soy que icelluy laissé près la mer pour la reverberation d'icelle, faict le pays d'Egypte que ne seroit que sable comme Lybie ou Arrabie." انظر: Voyage d'outremer, p. 30. وتدل هذه المقارنة بين مصر وكل من ليبيا وبلاد العرب على اتساع ثقافة جان ثونو. هذا وقد أورد فيلكس فابرى أربعة مواضع تسمى بلاد العرب ألا وهى: بلاد العرب الحجرية L'Arabie Pétrée (انظر: pp. 58-59)؛ وبلاد العرب السعيد (أى اليمن) (انظر: pp. 58, 217, 346, 747)؛ وبلاد العرب الصحراوية (أى شبه الجزيرة العربية) L'Arabie Désertique (انظر: pp. 58-59) وأخيرا بلاد ما وراء نهر الأردن العربية (أى الأردن وفلسطين). انظر: Voyage en Egypte, p. 220.

(٥٥) الفرسخ أربعة كيلومترات تقريبا. انظر: المنهل: قاموس فرنسى عربى، بيروت ١٩٨٠، ص٦١٤.

(56) Thenaud, pp. 30-31.

(57) Thenaud, p. 31.

(٥٨) الذراع ٥٠سم. انظر: قاموس المورد، ص٢٥٩.

(59) Thenaud, p. 31.

(٦٠) جاء فى مصدره بالفرنسية القديمة: Cestuy Fleuve Croist à la fin du moys de Juillet Jusques à Trente ou XL Jours continuelx peu à peu. انظر: Thenaud, p. 32.

(61) Bauwens – Préaux, p.47; Dopp, p.20.

(٦٢) توجد جزيرة الروضة بظاهر مدينة القاهرة، وفيها عمود من رخام أبيض أقامه المهندسون البارعون بحكمه وإتقان. ويبلغ ارتفاع القسم الظاهر فوق الماء من هذا العمود اثنى عشر ذراعا. وهو مفصل على درجات تشير إلى مبلغ ارتفاع مياه النيل، وعليه حارس موكل بإعطاء البشائر مياومة عن مقدار ارتفاع المياه. للتفاصيل انظر: Vansleb, Relation de L'egypte, Paris, 1677, pp. 64-69.

(٦٣) أبتنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة جزيرة الروضة لتكون مركزاً لمماليكه وأمرائه، واستغرق بنائها ثلاث سنوات. واسم الروضة كان يطلق على الجزيرة التى بين مصر ومدينة الجيزة. وفى عهد أحمد بن طولون بنى بها حصناً وذلك سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م أقيمت به دار الصناعة، لتصنيع المراكب الحربية واستمر كذلك إلى أن تولى محمد بن طغج الأخشيد مصر (٣٢٣-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٥م) حيث جعل موضعها بالجزيرة بستاناً سماه المختار وذلك سنة ٣٢٥هـ. وفى عهد الفاطميين بمصر (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م) صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة، وبقلعة الجزيرة، وبالقلعة الصالحية، وبقلعة المقياس. للتفاصيل انظر: المقريزى: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٠١، حاشية ١.

(٦٤) كانت إثيوبيا تسمى قديما "أطلنطا" Atlanta. انظر: Fabri, t. I., p. 214.

(65) Thenaud, p. 34.

(٦٦) كان عنوان الفصل الأول: "Premièrement Dudict Lieu d'Angoulesme Jusques au Cayre." انظر: Thenaud, p. 1-33.

(67) Thenaud, pp. 35-60.

(٦٨) يؤخذ على جان ثونو الاكتفاء بذكر كلمة بولاق Boulac رغم أن جوس فان غستل (١٤٨٢-١٤٨٣) الذى زار القاهرة قبله بثلاثة عقود – وغالبية الرحالة الأوربيين – خصص الفصل السابع عشر من مصدره وعنوانه "الحدائق المتنوعة والبساتين المثمرة المليئة بالأشجار الغريبة، والعامرة بالفواكه والخضروات، والواقعة بين بابيلون وبولاق" خصص هذا الفصل الكبير ليتحدث عن وصف بولاق وأهميتها الاقتصادية. انظر: Voyage en Egypte de Joos Van Ghistèle (1482-1483), Ed. Bauwens-Préaux, Le Caire, 1976, pp. 54-57; èd. P. H. Dopp. Pp. 22-23. وكذلك كان حال الرحالة المعاصر لجان ثونو ألا وهو البندقى تريفيزان الذى استقبله السلطان الغورى فى بلاطه يوم الاثنين ١٠ مايو ١٥١٢م / ٢٣ صفر ٩١٨هـ - أى بعد شهرين من اللقاء الذى تم بين الغورى وثونو، إذ اكتفى بالقول إن بولاق Boulag (هكذا فى الأصل) أحد ضواحى القاهرة البعيدة للغاية من القاهرة، وهى – مثل القاهرة القديمة – تطل على شاطئ نهر النيل. انظر: Trevisan, p. 207.

(69) Thenaud, pp. 35-36.

(70) Bauwens- Préaux, pp.56-57; Dopp,pp.22- 23.

(71) Bauwens- Préaux, p.57; Dopp,p.23.

(٧٢) "الأترجية" ثمرة متعددة الأنواع، فمنه ما هو بيضى الشكل ذهبى اللون، طيب الرائحة، جوفه أبيض اللون، حامض الطعم – أى مر – به بذر. للتفاصيل انظر: ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، جـ١، ص١٠؛ المقريزى: المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار – بولاق ١٢٧٠هـ - جـ١، ص٢٨.

(٧٣) قاموس المنهل، ص٢٠٦.

(٧٤) انتاب معظم الرحالة الأوربيين بالذهول والاندهاش عند رأيتهم شجرة الموز، لكونها لا تزرع فى بلادهم، كما أنهم لم يستوردوا الموز آنذاك. وقد أرجع الرحالة الفطن فيلكس فابرى ورفيقه بريدنبخ وجود هذه الفاكهة فى مصر دون أوربا على الظروف المناخية (انظر: Fabri, pp. 372, 902; Bredenbach, pp. 41-42). أما الرحالة المعاصر جان ثونو

وغريمه السفير البندقى دومنيكو تريفيزان فقد وصفا تلك الشجرة بالقول "رأينا شجرة ارتفاعها قدمين ولا تحوى إلا أربع ورقات طول الورقة منها أربعة أشبار.(فى غستل ثلاثة أشبار. انظر: Ghistèle, p.59) وعرضها نصف شبر أو أزيد قليلا. اسم هذه الشجرة موزارو Musaro وفاكهتها تسمى موز Muse. والموز يشبه فى شكله الخيار، ونسى ذكر اختلاف اللون بين الاثنين". انظر: Trevisan, p. 178.

(75) Thenaud, p. 36.
(76) Thenaud, p. 37.
(77) Thenaud, pp. 37-42.
(78) Thenaud, pp. 42-43.
(79) Thenaud, p. 43.
(80) Thenaud, p. 43.
(٨١) تقع مدينة "أورليان" Orleans على الضفة اليمنى لنهر اللوار Loire على مسافة ١١٩كم جنوب غرب باريس. للتفاصيل انظر: Bouillet, pl. 1390.

(82) Thenaud, pp. 44-45.
(٨٣) القدم يساوى ٠,٣٤٢٨م. انظر: Dictionnaire Larousse, Paris, 1944, p. 777.
(٨٤) Dextre بفرنسية العصور الوسطى وDestrier أو Dextrier بالفرنسية الحديثة. وهى كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Dextera وتعنى اليمين. انظر: Dictionnaire Larousse, p. 297.
(٨٥) Senestre أو Sénestre وهى كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Sinister وتعنى اليسار. انظر: Dictionnaire Larousse, p. 939.
(٨٦) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور – بولاق ١٣١١هـ - جـ ٤، ص٢٣١.
(٨٧)وقد رسم الفارس الألمانى أرنولد فون هارف السلطان الناصر أبى السعادات محمد بن قايتباى (٩٠١-٩٠٤هـ/١٤٩٦-١٤٩٨م) وهو جالس تحت مظلة على الدكة، واضعاً فوق رأسه عمامة مملوكية ذات الشعب أو القرون. انظر: Letts, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, p.107. والملاحظ أن كافة الرسومات الواردة فى الترجمة الإنجليزية لم ترد فى الترجمة الفرنسية التى أعدها دوب. وقد أورد ابن إياس هذه العمامة باسم "التخفيفة الكبيرة" إذ جاء فى مصدره: ".... فى يوم الاثنين رابعه (٤ شعبان سنة ٩١٩هـ) ... خرج السلطان... وقد لبس التخفيفة الكبيرة المسماة "بالناعورة"، وهى الآن فى مقام التاج لملوك مصر." انظر: بدائع الزهور فى وقائع الدهور- تحقيق محمد مصطفى- القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م- ج٤، ص ٣٣١-٣٣٢. وللتفاصيل عن ملابس السلطان انظر: ل. أ. ماير: الملابس المملوكية –ترجمة صالح الشيتى- القاهرة د.ت.، ص٢٩-٣٤.

(88) Thenaud, pp. 45-46.
(89) Thenaud, p. 46.
(90) Bauwens – Préaux, p.22; Dopp,pp. 9-10.
(91) Bauwens – Préaux, p.22; Dopp,p.10.
(92) Bauwens- Préaux, p22; Dopp,p.10.

والملاحظ تقارب ما أورده القلقشندى فيما يتعلق بالرسوم المتعلقة باستقبال ملك أو رسول دولة من الدول مع ما سجله جوس ڤان غستل، إذ جاء فيه أنه: "إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته، كاتب نائب تلك الجهة السلطان عرفه بوفوده، واستأذنه فى إشخاصه إليه، فتبرز المراسم بحضوره فيحضر فإن كان مرسله ذا مكانة عظيمة... خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب نحوها للقائه... وإن كان دون ذلك تلقاه المهمندار واستأذن عليه الدوادار... ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بإيوانه، وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام، ويحضر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه، فيقبل الأرض ويتناول الدوادار الكتاب منه فيمسحه بوجه الرسول، ثم يدفعه إلى السلطان فيفضه ويدفعه إلى كاتب السر فيقرؤه على السلطان ويأمر فيه أمره." (انظر: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء- دار الكتب المصرية ١٩١٣-١٩١٩م- ج٤، ص ٥٨-٥٩).

إذن لمثول الرحالة بين يدى السلطان كان عليهم التعامل مع شخصين: الأول المترجم الذى يسعى لتحديد يوم استقبال السلطان لهم، كما كانت عليه مسئولية تلقينهم ما يجب فعله قبل وصولهم إلى حضرته. ثم يقوم الشخص الثانى ألا وهو المهمندار بسؤالهم عن غرض حضورهم، ويسلم مكاتباتهم إلى كاتم السر. "والمهمندار" هو الذى يتلقى الرسل والعربان والواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث فى القيام بأمرهم كما سبق أن ذكرنا. انظر: القلقشندى: ج٤، ص ٢٢، ٥٩، ج٥، ص ٤٥٩.

(93) Bauwens – Préaux, p.23; Dopp, p.10.
(94) Bauwens- Préaux, pp.23-24; Dopp.p.10-11.

(٩٥) الذراع يساوى ٥٠ سم.

(96) Bauwens – Préaux, p.24; Dopp, p.11.

(97) Bauwens- Préaux, pp.24-25; Dopp.pp.11.

والملاحظ أن رواية الفارس الألمانى أرنولد فون هارف تقاربت هنا أيضاً مع رواية جوس ڤان غستل إذ أورد أنه بعد مرور الرحالة من خلال ثلاث بوابات عليها حراسة مشددة، وصلوا إلى حجرة السلطان الخاصة به –أى الإيوان السلطانى- وكانت حسنة التأثيث ومزينة بأبهة وفخامة وروعة. وكان السلطان يجلس على دكة (أو مصطبة فى حوش القلعة) مرتفعة تعلوها مظلة مزركشة. وقد رسم أرنولد فون هارف السلطان وهو جالس تحت هذه المظلة التى كانت على هيئة قبة تتدلى منها ستائر حول الدكة، ويدور حول القبة أفريز مزين بزخارف من معينات، ويجلس السلطان فوق وسائد ثلاث محشوة وضعت فوق غطاء من القماش يتدلى حتى الأرض وتزينه زخارف المعينات. ويضع السلطان فوق رأسه عمامة مملوكية من تلك العمائم التى استحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ويقبض السلطان بيده اليمنى على عصا كالصولجان، أشبه بالدبوس، وعن يمينه ويساره مملوكان من السلاح دارية تمنطق كل منهما بالسيف، وفوق رأس كل منهما عمامة تختلف الواحدة عن الأخرى، وتبدو عمامة المملوك على يسار السلطان وكأنها لفت حول شربوش، ويلبس كل من المملوكين خفا فى رجله يقال له السقمان، وكان غالباً يتخذ من الجلد البلغارى الأسود؛ ويلبس كل منهما قباء فضفاضاً له أكمام واسعة وكمران بحلق وإبزيم. وكان يحيط بالسلطان رجال الحاشية والقضاة والجند. انظر: Dopp, Arnold Von Harff, pp. 38-39; Letts, Engl, Trans., p.107.

(98) Bauwens- Préaux, pp.25; Dopp.pp.11-12.

ونستخلص من تلك الرواية أن السلطان قايتباى كان يحاول تجميع بعض المعلومات فيما يتعلق بأحوال الغرب الأوربى ربما هناك استعدادات عسكرية لشن حملة على مصر إذ كانت مشاريع دعاة الحروب الصليبية على أشدها آنذاك.

(99) Bauwens- Préaux, p.26; Dopp.p.12.

(100) Dopp, p.35; Engl. Trans. Pp. 102-103.

(101) Bouillet, p. 573.

(102) Dopp, Arnold Von Harff, pp.38-39;Letts Engl. Trans, pp.106-107.

(103) Dopp, Arnold Von Harff, pp. 38-39; Letts, Engl, Trans., p.107.

(١٠٤) "الزردخاناه" أى بين السلاح. انظر: انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية – بيروت ١٩٨٢ – ص٣٨٢.

(١٠٥) "الصناجق" أو السناجق مفردها سنجق، وهو لفظ تركى كان يطلق أصلا على الرمح، ثم أطلق على الرايات الصغر الصغار التى تربط بطرف الرمح، ويحملها السنجقدار. وكانت السناجق تحمل بين يدى السلطان فى مواكبه. انظر: فايز نجيب إسكندر: الأشرف خليل وفتح قلعة الروم، البحث السابع فى كتابى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى – القاهرة ٢٠٠٧ – جـ١، حاشية٢؛ وكذا كتابات ابن إياس وابن زنبل الرمال عن الفتح العثمانى لمصر البحث السابع من السلسلة السابقة، جـ٢، ص٢٦٥، حاشية ٥.

(١٠٦) "كاتب السر" مهمته قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابه أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودا وصدرا، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها، ومشاركة الدوادار فى كافة الأمور السلطانية. للتفاصيل انظر: القلقشندى: جـ٤، ص٣٠.

(١٠٧) "المهمندار" مهمته تلقى الرسل الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرهم. انظر: القلقشندى: جـ٤، ص٢٢.

(١٠٨) بدائع الزهور فى وقائع الدهور – تحقيق محمد مصطفى – القاهرة ١٩٨٤ – جـ٤، ص٢٥٥.

(١٠٩) بدائع الزهور فى وقائع الدهور – جـ٥، ص٢٥٩.

(110) La Relation de L'ambassade de Domenico Trevisan Auprès du Soudan d'Egypte, pp. 186-187.

(111) La Relation, p. 191.

(112) La Relation, pp. 191-192.

(113) La Relation, p. 192.

(114) La Relation, pp. 181-182.

(115) Thenaud, p. 46.

(١١٦) والملاحظ أن جان ثونو لم يزودنا بتفاصيل عن مساحة القاهرة وتعدادها السكانى، إذ اكتفى بتناول ذلك فى سطرين قائلا: "Ceste Cité Unie et assemble est trios foys aussy grande que Paris et peuplée cinq foys plus. انظر: Thenaud, p. 46. بينما اكتفى غريمه دومينيكو تريفيزان بالقول إنه "فى كل الشوارع التى اجتزناها للوصول إلى مسكننا، كنا نجد جمعا غفيرا من الناس لا يصدقه عقل، البعض يمتطى الخيل أو الحمار والبعض الآخر يسير على الأقدام". انظر: Trevisan, p. 181. وقد تجاهل تريفيزان ذكر مساحة القاهرة، بينما بالغ فى موضع آخر غير السابق ذكره حين قال: "يعتقد أن تعداد سكان القاهرة يصل إلى مليون ونصف من البشر، لكن غالبيتهم العظمى من الرعاع والبؤساء". انظر: Trévisan, pp. 207-208.

(١١٧) أورد برنار دو بريدنبخ أن "المدينة تعد أكثر المدن فى كثافتها السكانية، ومن المعتقد أن كثافة إيطاليا بأكملها لا تساوى الكثافة السكانية لمدينة القاهرة. إذ جاء فى هذا المصدر المتزامن مع سنة قيام جوس ڤان غستل برحلته: La Ville Est

plus populeuse Qu'aucune autre et l'on croit que la population de toute l'Italie n'égale pas celle du Caire." انظر:. Bernard DE Breydenbach, p.60 ، بينما اكتفى الرحالة اليهودى الإيطالى المولد عوبديا Obadiah الذى زار مصر سنة ١٤٨٨م بالقول: "لن أتحدث عن كبر مساحة القاهرة ولا عن كثافتها السكانية التى نستشفها من كثرة المتجولين فى شوارعها، لأن كثيرين سبقنى إلى ذلك، وكل ما سردوه عن تلك المدينة حقيقة لا مبالغة فيها." انظر: Dopp, Obadiah Jaré Da Bertinoro, p.24. Adler, E.N., Jewis Travellers, London, 1930, p.224، وقد جاء فى الترجمة الإنجليزية: "I shall not speak of the Grandeur of Cairo and the multitude of men to be seen streaming there, for many before me have described them, and all that has been said of the town is true."، أما الرحالة اليهودى الثرى مشولام بن مناحم الذى زار مصر سنة ١٤٨١م فقال إن القاهرة تحتاج أكثر من مجلد لوصفها، وأن عدد سكانها يبلغ نصف مجموع سكان روما وميلانو وبادوا وفلورنسا وأربع مدن أخرى من أعاظم المدن الأوربية. انظر: Dopp, Meshulam Ben Menahem, t. XXVI, p. 119; Adler, Jewis Travellers, p. 116.، واكتفى فرنسسكو سوريانو Francesco Suriano -وهو من أسرة ذات أصول سورية ولد فى البندقية سنة ١٤٥٠م- وزار القاهرة سنة ١٤٩٤م اكتفى بالقول "إن المدينة (أى القاهرة) سكانها لا حصر لهم". انظر:. Dopp, Francesco suriano, p.28. "La ville a une population innombrable" . وعنها قال أرنولد فون هارف إن "القاهرة مدينة كبيرة للغاية، تعج بالسكان، لكنها بلا أسوار". انظر: Dopp, Arnold Von Harff, p.35; Letts., English Translation,p.102.، وقد جاء فيه: "Cairo is a very large town full of people but not walled."، فى حين ذكر دومينيكو تريفيزان Domenico Trevisan "أن المدينة تعج بسكانها... ويعتقد أن عددهم يصل إلى مليون ونصف نسمة" إذ جاء فى مصدره: "La ville est bien peuplée ... on croit que La population s' élève au chiffre d'un million et demi d' Âme."، انظر: Le voyage d' outremer, pupliè par ch. Schefer, paris, 1864, pp.207-208.، والملاحظ أن فى قوله هذا مبالغة واضحة، لعدم وجود تعداد إحصائى آنذاك.

([118]) Bauwens – Préaux, p.18;Dopp,p.8.

وقد جنح أرنولد فون هارف إلى المبالغة حين قال إن: "فى القاهرة يعج المنزل الواحد بعدد لا يصدق من السكان، إذ يقطن معاً أحياناً عشر أو اثنتى عشر أسرة." انظر:Dopp, Arnold Von Harff, p.4 ، إذ جاء فى الترجمة الإنجليزية للفارس أرنولد فون هارف:

"... innumerable people in this town live in one house, ten or twelve families."

Letts, F.S.A., The Pilgrimage of Arnold of Harff, London, 1946, p.112.

([119]) Bauwens – Préaux, p.18;Dopp,p.8.

وقد انفرد چوس ڤان غستل بذكر تلك المعلومات التى تدل على أن العشوائيات وأزمة الإسكان الطاحنة كانت قبل سنة انطلاقه فى رحلته إلى مصر، ولا زالت إلى يومنا هذا.

(١٢٠) جاء فى رحلة التاجر باسيل (١٤٦٥م): "أن مدينة القاهرة مدينة كبيرة، مترامية الأطراف، بها أربعة عشر ألف شارع، ولكل شارع بابان وبرجان وحارسان من أعمالهما حراسة الشارع وإضاءته بالمصابيح الزيتية. انظر: Oleg, Voyageurs Russes, I.F.A.O., 1972, p.4;Dopp, Le Marchand Basile, p.107.، إذا جاء فى مصدره:

"La Ville Du Caire est Immense et Possède Quatorze Mille Rues. Chaque rue a Deux Portes et Deux Gardiens qui y Allument les Lampes à Huile."

وأورد جان أيرتس الذى زار القاهرة سنة ١٤٨٢م "أن بها ثلاثين ألف شارع ودرب" إذ جاء فى مصدره: "On Y Compte 30000 Rues Et Passages." انظر: Dopp. Jean Aerts, p.117.، هذا بينما كان أرنولد فون هارف أكثر إفاضة إذ جاء فى مصدره: "فى القاهرة ٢٤٠٠٠ شارع وحارة، من بينهم ٢٤ تدرج فى عداد الشوارع الرئيسية. ويبلغ طول أحد هذه الشوارع الرئيسية وأكبرها أكثر من ميلين. ويأتى من المطرية حيث ينمو شجر البلسم، ثم يخترق المدينة وبابليون (أى مصر القديمة) بأكملها. أما الشوارع الأخرى، فأقل طولاً؛ إذ طول الشارع ما بين ميل ونصف، وميل، أو نصف ميل. ومن بين شوارع القاهرة التى حصرناها أعلاه نجد الكثير منها فى غاية الصغر. وكافة الشوارع تغلق فى أولها وأخرها ليلاً بأبراج شاهقة للمراقبة لمواجهة هجمات المماليك على قاطنيها. ويقال إن عدد أبواب تلك الشوارع يقدر بثمانين ألف باب مكلف بحراستها ما يقرب من ثمانين ألف حارس وكل حارس مكلف بالتبليغ الفورى عن الحرائق والضجيج والهرج. انظر: Dopp, Arnold Von Harff , p. 40; English Translation, p.109.
كما زودنا فرنسسكو سريانو الذى زار القاهرة سنة ١٤٩٤م براوية مشابهة لرواية أرنولد فون هارف جاء فيها أن "كل شوارع مدينة القاهرة الرئيسية منها والشوارع العامة والدروج يتم غلقها كل مساء فى الساعة الثانية، ولا يعاد فتحها إلا مع بزوغ الفجر. ويعد هذا من التدابير الفعالة للحفاظ على الأمن والأمان فى ربوع القاهرة. ويفضى ذلك إلى انعدام السرقات ليلاً، لأنه بفضل تلك الاحتياطات سوف لا يتمكن اللص من الإفلات من إلقاء القبض عليه." انظر: Dopp. Francesco suriano,p.28; Le Caire vu par les Voyageurs occidentaux du moyen Age, Paris, 1953, t.xxvI,p. 107. وللتفاصيل انظر: فايز نجيب إسكندر: مصر فى كتابات الرحالة الروس، ص ٢٠٧-٢٠٨،

حاشية ٥٩-٦٠-٦١ بحث منشور فى الجزء الرابع من كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى- القاهرة ٢٠٠٧.

([121]) Bauwens – Préaux, p.18; Dopp, p.8.

([122]) Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8.

وقد حدد الفارس أرنولد فون هارف عدد الشوارع الرئيسية فى القاهرة بأربعة وعشرين. انظر: Dopp, p.40; Engl. Trans., p.109.

(١٢٣) أشار إلى ذلك عديد من الرحالة انظر: Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8; Felix Fabri, t. II, pp.404-405, 530; Dopp, Francesco Suriano, p.30.

(١٢٤) عن ذلك انظر: Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8; Dopp, Arnold Von Harff, P.40; Letts, Engl. Trans., p.109; Dopp, Francesco suriano, p.28.

(١٢٥) استخدم فى الإضاءة الزيت المضاف إليه الشمع؛ كما استخدم زيت الزيتون لهذا الغرض، فإذا تعذر الحصول عليه أو كان مرتفع الثمن، كان الزيت الحار يستخدم بدلا منه. انظر: Bertrandon de la Broquière, le Voyage d'Outremer, èd. Schefer, Paris, 1892, p. 77.

(١٢٦) القرطم هو حب نبات العصفر. انظر: داود الأنطاكى: تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب – القاهرة ١٢٣٢هـ - جـ٢، ص٨٢. انظر أيضا: المعجم الوجيز، ص٤٩٨.

([127]) Thenaud, p. 46.

هذا وقد اكتفى الرحالة الذى زار القاهرة فى سفارة مصالحة السلطان الغورى بعد حوالى شهرين من وصول ثينو، ألا وهو دومينيكو تريفزان، اكتفى بالقول: "نرى فى القاهرة عددا كبيرا من المساجد الفخمة والرائعة، مساحة البعض منها لا نستطيع تقديرها. وفى أعلى كل مسجد مأذنة للدعوة للصلوات الخمس؛ وأرجع ذلك إلى أنه لا يوجد على الإطلاق أجراس كحال الكنائس". وبذلك أفلت تريفيزان من المبالغة العددية. انظر: Trevisan, pp. 207-208.

([128]) Thenaud, pp. 46-47.

(١٢٩) فى فيلكس فابرى ٦٠ ألف مسجد. انظر: Fabri, t. III, p.528. وفى فرنسسكو سوريانو ١٦ ألف. انظر: Dopp, Francesco, p. 28. وفى جان ثونو ٢٠ ألف. انظر: Jehan Thenaud, p. 46 . وقد اكتفى برنار دو بريدنبخ بالقول إن "القاهرة تحوى أجمل المساجد بمآذنها الشاهقة، ولا اعتقد أن فى روما عدداً من الكنائس مساوياً لعدد مساجد القاهرة". انظر: Bernard De Breydenbach, p.55. أما دومينيكو تريفريان فقد جاء فى مصدره: "نرى فى القاهرة عدداً كبيراً من المساجد الرائعة، البعض ذات مساحة لا يمكن تقديرها.". انظر: Schefer, Le Voyage D'outremer, p.208. فى حين حدد ثونو عددها بعشرين ألفاً. انظر: Scheffer, p.46.

(١٣٠) زعم چوس ڤان غستل أن المساجد شيدت تمجيداً لذكرى الرسول عليه الصلاة والسلام. إذ جاء فى مصدره: "ce sont des temples elevées en L'Honneur De Mahomet, Leur Prophéte." انظر: Bauwens- Préaux, p.19; Dopp, p.8.

([131]) Bauwens- Préaux.p.19; Dopp, p.8; Fabri, t. II, pp. 528; t. III, p.912.

(١٣٢) يرجع سبب ذلك إلى عدم توافر الغابات فى مصر، وبالتالى تباع الأخشاب بالميزان وبثمن باهظ على حد قول فابرى. انظر: Fabri, 568, 928; Arnold Von Harff, pp. 109-110; Ghistèle, p. 19; Thenaud, p. 47.

(١٣٣) أورد الرحالة الفلورنسى ليونردو فرسكوبلدى Lionardo Frescobaldi الذى زار القاهرة سنة ١٣٨٤م أنه رأى فى تلك المدينة أعدادا كبيرة للغاية من الطباخين، يطهون أطعمتهم – ليل نهار، فى الشارع، وفى العراء – وذلك داخل قدور نحاسية جميلة، حيث يعدون لحوما ممتازة تمتاز بحلاوة مذاقها. انظر: Dopp., Le Caire, 1950, t. XXIII, p. 135. هذا وقد أورد فيلكس فابرى وبريدنبخ رفيقه أن عدد الطباخين فى القاهرة بلغ تقريبا اثنى عشر ألفا كما قيل لهم. انظر: Bredenbach, p. 60; Fabri, pp. 568, 928. بينما أورد دومنيكو تريفيزان أن نسبة المطابخ بالقاهرة اثنين من كل عشرة دكاكين. انظر: Relation, p. 210. وأخيرا أورد الفارس الألمانى أن بالقاهرة أربع وعشرين ألف طباخ وثمانية وأربعين ألف مخبز. إذ جاء فى الترجمة الإنجليزية: "There are in the town 24.000 cooks and 48.000 bread-Bakers." انظر: The Pilgrimage, tr. Letts, p. 109; Dopp., p. 40.

([134]) Thenaud, p. 47; Lionardo Frescobaldi, Trad. Dopp, t. XXIII, p. 135.

([135]) Thenaud, p. 47.

([136]) Bauwens – Préaux, p.19;Dopp,p.8.

(١٣٧) "المدين" عملة فضية صغيرة. ومما يذكر أن الدينار الأشرفى الذهبى الذى سكه السلطان الأشرف قايتباى يساوى ٢٦ من تلك العملة الفضية. انظر: Dopp, Josse De Ghistele, p.8, n.2.، و٢٥ مدين يساوى دوكة واحدة. انظر: Bauwens- Préaux, p.19, n.29.

([138]) Dopp, Francesco Suriano (1494), p.29; Dopp, Arnold Von Harff,p.41; Engl. Trans,p.111; Fabri, pp. 527, 924.

(139) Thenaud, pp. 47-48.

(140) Thenaud, p. 48.

(١٤١) Thenaud, p. 48. والجدير بالذكر أن فنادق الأجانب كانت تستخدم كمساكن ومخازن لبضائع التجار الأجانب من ناحية، ومصارف تجارية كبيرة من ناحية أخرى. للتفاصيل انظر: Fabri, pp. 666-671, 953; Breydenbach, p. 67.

(١٤٢) Thenaud, p. 48. والجدير بالذكر أن هذا الكم الهائل من جنسيات التجار الأجانب لدليل قاطع على أن مصر كانت مركزا عالميا للتجارة بين الشرق والغرب ويعود ذلك فى الأساس إلى موقعها الجغرافى الهام. فلكون الإسكندرية ودمياط تطلان على البحر المتوسط، لذا كانتا مزدحمتان على الدوام بتجار وحجاج مشارقة ومغاربة وأوربيين. كما كان للإسكندرية ميناءان: الأول الميناء الغربى القديم المسمى أيضا ميناء السلسلة - والتصقت به هذه التسمية إلى يومنا هذا – وهو ميناء خاص بالسفن الإسلامية؛ أما الميناء الثانى فهو الميناء الشرقى وعرف أيضا بمرسى المبرج، فقد كان يستقبل السفن الآتية من البلدان المسيحية فى أوربا. للتفاصيل انظر: Thenaud, p. 27; Fabri, pp. 315-317.

(143) Thenaud, p. 48.

(١٤٤) فى حديثه عن عناصر السكان فى القاهرة، سجل جوس فان غستل أن تعداد اليهود بلغ خمسة عشر ألف يهوديا، يمارس معظمهم تقريبا حرفا يدوية. (انظر: Bauwens – Préaux, p. 20; Dopp, p. 9.) وفى قوله هذا نصف الحقيقة إذ أورد الرحالة اليهودى عوبديا أن: "من بين يهود القاهرة من يمارس أعمال الصرافة والتجارة، لأن المدينة كبيرة؛ وبعض الأنشطة الصناعية متاحة للجميع. ولا يوجد سوق موات للتجارة مثل سوق القاهرة، وبالتالى فمن السهل الثراء وتكوين الثروات: انظر: Dopp, Obadiah Jaré da Bertinoro, p. 24; Adler, p. 228.

(145) Bauwens- Préaux, pp.30-32; Dopp.pp.12-14.

كان "مماليك السلطان" يرأسهم "مقدمو المماليك السلطانية"؛ بينما الأمراء يرأسون مماليكهم. للتفاصيل انظر: القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥-١٦؛ المقريزى: الخطط، ج٣، ص ٣٥٤.

(146) Thenaud, p. 49.

(١٤٧) تحدث جوس فان غستل بإسهاب عن الجيش المملوكى. للتفاصيل انظر: فايز نجيب إسكندر: القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جوس فان غستل بحث منشور فى الجزء الخامس من كتابى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ص١٤٧-١٥٢.

(148) Thenaud, p. 49.

والدوقة Ducat كانت تزن آنذاك بين ٣,٣٠ جراماً ذهبا و٣,٤٨. انظر: رأفت محمد محمد النبراوى: الدوكات الذهبية البندقية – مجلة الدارة العدد الرابع السنة السابعة عشر ١٤١٢هـ- ص١٠٩، حاشية ٢٥. ولقد وصف القلقشندى الدنانير الافرنتية (وهى عملات ذهبية ضربت على مثال الدوكات) والدوكات وصفاً إجماليا فقال إنها مشخصة، أى منقوش عليها رسوم أشخاص، فعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى ضربت هذه العملة فى عهده، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح إلى روما. انظر: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جـ٣، ص٤٣٧.

(١٤٩) بعد أن استبد به المرض، تنازل السلطان قايتباى سنة ٩٠١هـ/١٤٩٦م لابنه محمد الذى كان صغيرا فى الرابعة من عمره، فتولى منصب الأتابكية الأمير قانصوه خمسمائة الذى بدوره عزل محمد بن قايتباى ليعلن نفسه سلطانا سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، وانتهى الأمر بقتله على يد خصومه وإعادة الناصر محمد بن قايتباى ثانية إلى السلطان. إلا أن كبار الأمراء ضاقوا باستبداد المماليك الجلبان وخضوع الناصر لرأيهم، فقتلوه سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، وولوا السلطنة خاله وشريكهم فى مؤامرة الاغتيال الظاهر قانصوه لكن سرعان ما عزل سنة ٩٠٥هـ/١٥٠٠م ليخلفه الأشرف جانبلاط ويخنق هذا الأخير ليصبح العادل طومان باى الأول سنة ٩٠٦هـ/ يناير ١٥٠١م والذى لقى حتفه خنقا كسابقه بعد بضعة أشهر ويتولى السلطنة الأشرف قانصوه الغورى سنة ٩٠٦هـ/ إبريل ١٥٠١م وقد امتنع عن قبول المنصب عند عرضه عليه بل وبكى، وبعد إلحاح قبله بشرط تعهد الأمراء بعدم قتله بل خلعه بالحسنى. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص٣٢٢-٣٢٤.

(150) Thenaud, p. 50.

(151) Thenaud, PP. 50-51.

(152) Thenaud, p. 51.

(١٥٣) تضارب تعداد اليهود فى مصادر الرحالة الأوربيين. فالرحالة اليهودى الإيطالى المولد عوبديا Obadiah الذى زار القاهرة سنة ١٤٨٨م ذكر أن "بالقاهرة حالياً حوالى سبعمائة أسرة يهودية" إذ جاء فى الترجمة الإنجليزية لأدلر Adler الآتى:".In Cairo The are now about seven hundred jewish families" . انظر: (Jewish Travellers, p.225). بينما لم يذكر دوب Dopp ذلك فى مقتطفاته عن الرحالة الأوربيين. أما فيلكس فابرى فقد أورد أن تعدادهم خمسة عشر ألفاً. وانخفض عددهم فى أرنولد فون هارف إلى عشرة آلاف، لكنه زودنا بمعلومة جديدة مفادها أنه كان عليهم أن يدفعوا إلى السلطان جزية سنوية مقدارها ثلاثة دوكات عن كل رأس. انظر: Dopp, Arnold Von Harff, p.43;Engl. Trans, p.113. وتقاربت رواية جان ثونو مع رواية أرنولد فون هارف إذ أورد فى مصدره الذى ألفه

بالفرنسية القديمة أن "فى هذه المدينة يقطن أكثر من عشرة آلاف يهودى، ولهم شارعهم ومعبدهم (كنيس) وأسواقهم" إذ جاء فى هذا المصدر: "En Ceste Ville Du Cayre Sont Plus De X Mille Juifz Qui Ont Leurs Rues, Sinagogues Et Marchés." انظر: Schefer, voyage, p.51. أما عن شارع اليهود، فقد ذكر عوبديا "أن اليهودى باستطاعته شراء كافة حاجياته من لحم، وجبن، وسمك، وخضروات وغير ذلك من أشياء لأن كل ذلك يباع فى شارع اليهود". انظر: Dopp, Obadiah Jaré Da Bertinoro (1488), p.25; Adler, The Letters of Obadiah, p.228. هذا وقد أورد جوس فان غستل إنه علم أن بالقاهرة خمسة عشر ألف يهودى، يمارس معظمهم تقريبا حرفا يدوية. انظر: فايز نجيب إسكندر: القاهرة زمن المماليك الجراكسة فى عينى الرحالة جونس فان غستل، ص١٤١،

(154) Thenaud, p. 51.

(١٥٥) سكن الأقباط فى موضع سمى بحارة النصارى. انظر: Thenaud, p. 51, n. 1.

(156) Thenaud, p. 51.

هذا وقد أورد جوس فان غستل أن ثمانية عشر ألفا من المسيحيين يقيمون بالقاهرة: منهم أقباط مصر، وعناصر أخرى من إثيوبيين وأرمن وجورجيين ونوبيين ومذاهب أخرى. وانفرد بالقول إن اللاتين الكاثوليك كانوا يشكلون آنذاك قلة نادرة، ويطلق عليهم الفرنجة. انظر: Bauwens – Préaux, p. 20; Dopp. P. 9

(١٥٧) يؤخذ على فيلكس فابرى قوله إنه "لا زال يوجد بالقاهرة أكثر من اثنين وعشرين ألف من المسيحيين الشرقيين الروم" أى روم أرثوذكس على المذهب الملكانى وليس على المذهب المونوفيزى الذى يعتنقه أقباط مصر. علما بأن الروم الأرثوذكس كانوا يشكلون قلة آنذاك. إذ جاء فى مصدره: "On trouve encore plus de Vingt -Deux Mille Chrétiens Orientaux Grecs". انظر: voyage en Egypte, t.III, p.567. كما لم يشر على الإطلاق إلى أقباط مصر الذين يشكلون الغالبية العظمى من سكان مصر آنذاك. ومن المؤكد أنه اعتقد خطأ أن أقباط مصر يدينون بالمسيحية على المذهب الملكانى كالبيزنطيين أى الروم الأرثوذكس. هذا وقد حدد أرنولد فون هارف "مسيحيى مصر بثلاثين ألف من مذاهب مختلفة، دون حساب اللاتين". إذ جاء فى الترجمة الفرنسية: "Il y a Dans La ville Trente Mille Chrétiens recensés De Toutes Confessions, Sans competer les Latins." انظر: Dopp, Arnold Von Harff, p.43. وورد فى الترجمة الإنجليزية: "also in this town there are 30000 numbered Christians of all sects, not counting Latins." انظر:" Letts, Engl.trans., pp.112-113 . وفى جان ثونو "فى مدينة القاهرة هذه أكثر من عشرة آلاف من المسيحيين منهم سريان وأقباط ويعاقبة" علماً بأن الأقباط يعاقبة ولا علم للرحالة بذلك. انظر:.Schefer, Voyage, p.51 .

(158) Thenaud, p. 51.

(١٥٩) تعتبر كنيسة العذراء الشهيرة بالمعلقة أقدم وأعظم كنائس حصن بابليون. وسميت بالمعلقة لأنها تقوم على أنقاض جدران برجين كبيرين من أبراج الحصن الرومانى، والوصول إليها بواسطة درجات سلالم مقامة على مقربة من إحدى تلك الأبراج، وهو البرج الأوسط من الثلاثة الموجودة من الناحية الجنوبية للحصن. وكنيسة المعلقة بازيليكية الطراز كغيرها من كنائس مصر القديمة، وهى الوحيدة بين تلك الكنائس العديمة القباب، بسبب الطريقة التى اتبعت فى إنشائها على أنقاض الأبراج بين الهواء لأعلى الأرض. ولهذه الكنيسة مزايا أخرى، فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس، بل هناك منصة مرتفعة أمام السقف المنخفض فى الجهة الشرقية. وهذه المنصة تؤدى الغرض الذى يؤديه الهيكل، على حين نرى السقف مضاعفاً فى الجانب الشمالى، والحاجز المنقوش فى الجانب الشمالى مرصع بالزخارف المصنوعة من العاج الرقيق، مما يزيد من بهجة المكان وجماله حينما تضاء المصابيح المعلقة خلفه. أما المنبر، فقد نقش نقشاً بديعاً رائعاً، وهو مقام على خمسة عشر عموداً دقيقاً صنعت على الطراز الإسلامى. (للتفاصيل انظر: أبو المكارم: تاريخ "أبو المكارم"- إعداد الأنبا صمونيل – القاهرة ٢٠٠٠م – جـ٤، ص٤٣). هذا وقد زار الأب فانسلب Vansleb كنيسة المعلقة سنة ١٦٧٢م، إذ أوفده لويس الرابع عشر Louis XIV ملك فرنسا إلى مصر لدراسة الكنائس والأديرة، فاثبت فى مصدره أنه شاهد على أحد جدرانها كتابة قيل إنها بخط عمرو بن العاص فحواها وصاية بعدم التعرض لهذه الكنيسة بأذى، مما يؤكد سماحة الإسلام والمسلمين. انظر: Vansleb, Relation D' Egypte, Paris, 1677,p.137.

(١٦٠) الملاحظ أن فيلكس فابرى ذكر باقى كنائس مصر القديمة معاً تحت عنوان "زيارة كنائس أخرى فى مصر القديمة" قال: "خرجنا بعد ذلك من الكنيسة (أى من كنيسة أبى سرجة)، ووجدنا عديداً من الكنائس الصغيرة المغلقة، فلم نتمكن من زيارتها. ومع ذلك تسللنا إلى ثلاث كنائس رائعة وجميلة، فى كل منها رأينا قبوراً من الرخام قيل لنا إنها رفات بعض القديسين. وقد قيل لنا إنها للقديسة آن والقديسة بربارة والقديسة كاترين والقديس جورج". انظر:- Fabri, t. II, pp.465-466. والجدير بالتسجيل أن فرنسسكو سوريانو (١٤٩٤م) أخطأ حين ذكر أن رفات القديسة بربارة يوجد فى كنيسة المعلقة. وفى حديثه عن كنائس القاهرة اكتفى بالقول: "فى داخل وخارج القاهرة، يوجد العديد من الكنائس، من بينها كنيسة العذراء الشهيرة بالمعلقة حيث قبر القديسة بربارة". انظر:.Dopp. Francesco Suriano, p. 27 . أما أرنولد فون هارف، فقد أهمل تماماً ذكرها. فى حين أورد فانسليب: "... بعد ذلك (أى بعد زيارته لكنيسة المعلقة) قمت بزيارة كنيسة الست بربارة، وقيل لى إن جسدها موجود على يسار الهيكل. (وهو بذلك صحح خطأ سوريانو) والكنيسة كبيرة ومضيئة، ولذلك فهى تظهر كأنها أجملهم. كما يوجد على جانبيها ثلاث كنائس صغيرة". انظر:.Vansleb, p.237 . هذا وقد أكد

"أبو المكارم" أن جسدها موجود في الكنيسة التي باسمها. انظر: تاريخ "أبو المكارم" ج٤، ص ٤٤. وكذلك: تادرس يعقوب ملطي: قاموس آباء الكنيسة وقديسيها- القاهرة ١٩٩٥م- ج٢، ص٨٢-٨٤.

(161) Thenaud, pp. 52-53.

(١٦٢) الفرسخ: ٤٤٤٤م.

(١٦٣) أورد جوس فان غستل أن المسافة بين بابليون والأهرامات ستة أميال. أنظر(Voyage en Egypte, p. 80.). في حين يذكر فيلكس فابرى أن المسافة بين بابليون والأهرام تقترب من أربعة كيلو مترات تقريبا. أنظر: (Voyage en Egypte, p. 450.).

(164) Thenaud, pp. 53.
(165) Thenaud, pp. 53-54.
(166) Thenaud, pp. 54-55.
(167) Thenaud, p. 55.
(168) Thenaud, p. 56.
(169) Thenaud, pp. 56-57.
(170) Thenaud, p. 57.